فؤاد الشايب



مجموعة قصصية

تاريخ جرح

فؤاد الشايب

تاريخ جرح

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٧٨

تصميم الغلاف : مها العاقل

فؤاد الشايب

- ١ -

« لا نفاخر نحن أبناء الدورة الاولى في أدب القصة السورية بانتاجنا الضخم وأدبنا المتفوق ، فليس بين أيديكم منه سوى حفن لا تملأ الكف ولا العين »(١) ٠

٠٠ لشدّ ما هو دقيق ، فؤاد الشائب في قوله هذا ٠ فهو من جيل الرواد في القصة السورية ، وهو من هؤلاء القصاصين الاوائل الذين لم يتركوا نتاجا ثرأ ، بل تركوا فنا جديدا ، تعهدوه بالرعاية حتى شب ، وصار جنسا أدبيا سائدا ٠

ترك فؤاد الشائب مجموعة « تاريخ جرح » التي يعيد اتحاد الكتاب العرب طبعها(٢) ، كما ترك مجموعة متفرقة من القصص(٣) وجزءا من رواية(٤) ،

---

(١) من محاضرة للمرحوم فؤاد الشايب ألقاها في ١٥ آذار ١٩٥٣ في دمشق ٠

(٢) طبعت في دمشق عام ١٩٤٤ وكان المؤلف قد أعلن عنها باسم « وادي الجن » ٠

(٣) قصص « عندما يستيقظ الجسد » « السكرتان » ـ جريدة الايام ١٩٣٥ ـ « حياة بلا غد » « ما رأي الطبيب ؟ » ـ مجلة الصباح ١٩٤١ ـ وقصص أخرى في مجلة « الشام » وجريدة « الاستقلال العربي » ٠

(٤) « سيرة نفس » نشر بعضا منها في مجلة « الحديث » ١٩٤١ وبعضا آخر في مجلة « الصباح » ومقاطع في مجلة الآداب اللبنانية بعنوان آخر هو « أوراق موظف » ٠

فهو قاص مقل ، بسبب من انهماكه في أعباء العمل ، إنْ في الصحافة بعد عودته من فرنسا ـ ١٩٣٢ ـ وإنْ في القصر الجمهوري أو في مديرية الدعاية والانباء أو في وزارة الثقافة ، رئيسا لتحرير مجلة « المعرفة » وإنْ في الارجنتين ممثلا للجامعة العربية هناك(٥) لكن هذا النتاج ، على قلته ، رسم معالم الفن الوليد في سورية ، وجعل القصة لونا أدبيا مقبولا ، بعد أن كان في أعين القراء وأذهانهم ، شبيها بسرد « الحكواتي » في مقهى من المقاهي الشعبية .

- ٢ -

ما هي القصة في نظر فؤاد الشائب ؟

في مجلة « الصباح »(٦) كتب فؤاد الشائب مقالا عنوانه « كيف أكتب القصة »(٧) قال فيه : « لا أعرف لميلاد القصة في نفسي عملية معينة ذات ميكانيكية خاصة ، كلما استنجدت بها أُنجدت .. ان القصة عندي ، وهي في دور تمخضها ، صورة تنزل من منابع نفسي البعيدة المجهولة لتكون في مضطرب الوعي .. انما هي ثمرة ناضجة تعبة على الغصن الذي يحملها فما تحتاج الا غمزة القلم لتهوي ، وهكذا فاني لا أكلف نفسي عناء في وضع

(٥) توفي في الارجنتين ، وكان يشغل منصب مدير مكتب الجامعة العربية في بونس‌ايرس .
(٦) صدرت أسبوعية لمدة سنتين ، في ٦ تشرين الاول ١٩٤١ وكان رئيس تحريرها الاستاذ عبد الغني العطري .
(٧) العدد ١٣ تاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٤٢ .

الخطط والاشكال والبرامج ، ولا أرسم لشخص روايتي سبيل حياته وتعاريج تطوراته • انه سيعرفها بنفسه » •

ويضيف : « الفن الروائي لا يتكيء على المنطق دائما ، ففي قصتي « ملاك الموت » و « الشرق شرق »(٨) ، وضعت للاولى منذ شرعت في تأليفها هذه الفكرة : أم يستولي على ضميرها أن ملاك الموت سيدخل دارها ويخرج حاملا شيئا فلا تتعذب تحت هذا الكابوس حتى يموت وحيدها ، ووضعت للثانية الخلاصة التالية : « طالب سوري بعقلية شرقية ساذجة يعيش حياة حب شديدة مع فتاة باريسية تمثل كل فتون الغرب •• ثم لا شيء سوى هذه الصورة لكي أبدأ •• ان أحسن القصص عندي تلك التي لم يعمل فيها القلم مرة ثانية •• وما أضيفه بعد فراغي من القصة أحس به ذيلا ثرثارا دون جدوى » •

ومع أن فؤاد الشائب لا يؤمن بمبدأ الالتزام في الادب ، ويقول في ذلك : « الاديب الاصيل يؤدي رسالته أداء تلقائيا ، والغيمة ترسل الصاعقة ، ولا توصي عليها في مصانع الاسلحة ، ولم يضعها مخلوق في يمينها ، كذلك أدى الادب الخالد رسالات عظيمة في تاريخ الانسان ولم يكن (الوجوب) نصب العين ، وفي مراحل الدهور حاول (الوجوبيون) ادراك مراتب الابداع فظلوا يتمرغون في الحضيض ، وان خيل للنظارة في وقت ما أنهم أثاروا الزوابع فلم تكن سوى هباء ذهب بين شروق وغروب » فان في قصصه التزام الواقعي

(٨) القصتان منشورتان في مجموعة « تاريخ جرح » •

ببيئته وأرضه وشعبه و « بردود الفعل الانسانية المحتملة »[9] وتظهر معلمية الشائب « في فنه القصصي ، في ذلك النسيج المتين الذي يحبك به قصصه »[10] فهو قاص فنان ، والسرد عنده ليس سردا باردا جافا ، بل هو سلسلة من الصور المكثفة الموحية ٠

- ٣ -

ما الذي أراد فؤاد الشائب أن يقوله في « تاريخ جرح » ؟

في « الشرق شرق » يصاحب أحمد لوسي الباريسية ، ولكل منهما أفكاره ، فهو من هذه البقعة التي ترى العفاف قيمة اخلاقية ، وهي من تلك البقعة التي ترى العفاف شيئا آخر ، ولا يلتقي الشرق بالغرب ٠ وفي « ربيع يتضور » يبرز فؤاد الشائب بعضا من شطحات المراهقة وأوهامها وقلقها ، وفي « قبل المدفع » صورة رائعة لجوع حميدان ساعة الافطار ، وكيف قدر أن يعالج جوع ذلك المساء ٠ وفي « أحلام يولاند » عودة الى العالمين المختلفين ، الشرق والغرب ، وفي « العانس » ملامح من نفسية فتاة هرب منها قطار الزواج ، فصارت تفكر عن أختها الشابة ، وفي « جنازة الآلة » لقطة بارعة عن تعطل سيارة قادمة الى القرية واضطرار صاحبها الى الاستعانة بالعربة التي أخذت

(٩) شاكر مصطفى في كتابه « محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية » الصفحة ٣٤١ ٠

(١٠) المصدر نفسه ٠

السيارة مكانها ، لشدّها الى داخل القرية • وهناك قصتا « تاريخ جرح » و « جموح القطيع » اللتان لهما نكهة خاصة • وجميع هذه القصص صور من الواقع الحقيقي المعاد خلقه بريشة فنان يملك ناصية اللغة ويعرف طرائق التعبير المثيرة ، وينطلق في المضمون الذي تحمله من منطلق واضح ، أقل مايقال فيه أنه الى صف القيم الرفيعة •

- ٤ -

يلخص شاكر مصطفى في كتابه(١١) مميزات الفن القصصي عند فؤاد الشائب في :

١ ـ بدء القصة من نقطة مختارة وتطوير الحدث خطوة خطوة نحو اللحظة المأزومة •

٢ ـ الاهمال في تصوير الملامح الشخصية لأبطال قصصه الاّ بمقدار ما يفيد هذه القصص •

٣ ـ الاتكاء على اللقطات الجانبية التي تكشف الفكرة وتوجهها •

٤ ـ يستخدم الشائب أسلوبا ليس رخوا كأسلوب جبران وليس قاسيا كالاساليب البليغة القديمة •

غير أنه يمكن القول ان فؤاد الشائب لم يُدْرس ـ نقديا ـ دراسة جادة

(١١) « محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية » الصفحات ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ •

بعد ، باستثناء دراسة شاكر مصطفى ، وربما كان في اعادة طبع مجموعته هذه ، فرصة لتقويم فؤاد الشائب وأدبه تقويما جادا ومفصلا •

- ٥ -

لفؤاد الشائب غير « تاريخ جرح » قصص متفرقة ، وجزء من روايـة ومقالات(١٢) نشرها في مجلة « المعرفـة » السورية في أول طلعتها ، فجاءت قطوفا من آراء في الادب والفكر والثقافة • فاذا أضيف هذا الى مقالات وأحاديث ولقاءات ومحاضرات وخطب وإسهامات في الحياة الادبية(١٣) نشرت في الصحف والمجلات السورية واللبنانية والمهجرية في الثلاثينات والاربعينات والخمسينات والستينات ، شكّل الاعمال الكاملة التي من طموح اتحاد الكتاب ، فيما أظن ، أن ينشرها للشائب ولأمثاله •

- ٦ -

يبقى الجانب الشخصي في فؤاد الشائب •

عرفت الشائب منذ مطلع حياتي الادبية ، ورأيت فيه الاديب الكبير دونما استعلاء ، والحضن الحادب على من هم في أول الطريق من الموهوبين • وبدا لي وهو في قمة مناصبه عزوفا عنها ، آملا أن يتفرغ للأدب ، وهي أمنية لـم

(١٢) كان ينشرها في الصفحات الاخيرة من كل عدد تحت عنوان : « حديث الشهر » •

(١٣) كان ، على سبيل المثال ، رئيسا للجان مسابقات عديدة في القصة أجرتها الصحف والمجلات السورية في الاربعينات والخمسينات •

يكتب له أن يحققها • ولقد كنت أصغر أعضاء الوفد السوري الى مؤتمر الادباء العرب في القاهرة(١٤) ، سناً ، فما كان صغر سني ، وخجلي وأنا أدرج مع أعلام الادب من أمثال سامي الدهان وسامي الكيالي وخليل الهنداوي ، رحمهم الله ، في قاعات المؤتمر ، الا حافزا له ـ وهو رئيس الوفد ـ ليخصني بتقديره ، وحدبه ، اعترافا منه بالموهبة الشابة ، والبراعم التي تتشكل في الارض الادبية في القطر ••

كان الشائب انسانا • وكان في حياته اليومية أديبا بحق ، ومن المؤسف أن تتزاحم متاعب الوظيفة لتقتنص من الشائب أعز ما يملك : أن يكون أديباً متفرغا للادب ، يمارس القراءة والكتابة ولا غير سواهما •

ـ ٧ ـ

هل تطمح اعادة طبع « تاريخ جرح » الى أن تكون تكريما للاديب الكبير ، والرائد المجلي في فن القصة السورية ؟

هذا الطموح •• بعض من طموح آخر • فاتحاد الكتاب العرب باعادة طبع هذه المجموعة يكرس تقليدا جديدا في حياتنا الادبية ، وهو أن يكرم الادباء من أمثال الشائب •• بنشر نتاجاتهم مجددا ، حتى يلتقي جيل الرواد بالجيل الجديد ، وحتى يعرف الابناء ما فعله الآباء •

عادل أبوشنب

(١٤) عام ١٩٥٧ •



كلمة المؤلف

هذه صور ، ما كنت أرجو لهـا الظهور مجتمعة بين دفتي كتاب • فهي وليدة ظروف زمنية وأحوال نفسية لا تجمعها جامعة ولا تربطها قرابة • ولي رأي في النشر أحاول جاهدا أن ألتزمه وأعمل به ، وهو أن ما لا تجمعه فكرة واحـدة ونفس" متواصل غـير متقطع ، لا يصـح أن يكـون سبب اجتماعـه دفتا كتاب ••

ومنذ قنعت بضرورة نشر مجموعة قصصية ، ولعل للقصص شأنا خاصا في أدبنا الناشىء ، وأنا أفكر كيف أنسخ هذه القطع عن مخطوطاتها ، وأعدها للمطبعة ، حتى أتيح لي من الصبر والجلد ، في ساعات الصفاء والحماسة ، ما مكنني من الانكباب على النسخ ، والنفس تذوق الموت • فقد كان أكره مـا أكرهه في هذه الحرفة ، حرفة الأدب ، أن أعود الى ما كتبت مرة ثانية ، عـودة تذكرني بجمل يجتر ، أو بطفل يأكل من قيئه •

والسبب في هذا التباطؤ ليس ما ذكرت من كلل الهمة ، وقرف الاجترار فحسب • بل ان ثمة سببا لابد من الاشارة اليه وايضاحه بدون لبس ، وهو أنني لا أود أن أزج نفسي في انشاء أدب « القصة الصغيرة » وأدب « المقالة » مدشناً عهد النشر بالنوع القصير النفس ، الصغير الحجم ، خوفا من أن يجري ذلك علي عادة لا أجد بالتالي منها مفلتا ، فأذعن لها صاغرا •

وعادة التأليف بالنفس القصير من العادات المشؤومة باغرائها ، ولـين

جانبها ، وسهولة مأخذها ، وسطحية تفكيرها على الغالب ، ثـم باقبال القراء عليها ، واستزادتهم منها • وما هذه كلها الا قيود أو قل مغريات تجعل تلـك العادة الانشائية من « التقاليد الأدبية » الفاسدة ، المتحكمة برقاب المؤلفين على الأخص في فترة طغت فيها سنة الرواج على مبدأ الفائدة الفكرية • ولقد طالما نعيب على أديب مصر الكبير الاستاذ العقاد ، انصرافه الى أدب « المقالة » انصرافا مهلكا ، كاد يصرف معه نضارة عمره ، وزهرة ذكائـه ، حتى أنقذ نفسه في الأعوام الأخيرة ، فقام ينفض الكتاب اثر الكتاب ، متحرراً لحسن حظه وحظ قرائه ، من تقاليد أدب المقالـة التي يعد ، هـو ، من أكبر مخترعيها ، ومضللي الناشئة بحبها ، كذا فعل شوقي في أخريات أيامه ، وما أبقى ما فعل !

أنا لا أنكر أدب النفس القصير ، ليس تعبيراً عن هوى الكتّاب وارادتهم ولاسيما من نبهوا ونضجوا • انما هو أدب خلقته الصحافة اليومية المتأدبة ، بقضاء الضرورة وحكم الحاجة ، يوم لا مطابع كبرى ولا دور نشر ولا امكانيات فردية للقيام بالمشاريع الفكرية الجدية • ومع ذلك فانني شديد الحرص على أن يكافح الأدباء ، جهد الطاقة ، ذاك النوع من الاستنزال الأدبي ، ليخرجوا من كفاحهم ظافرين بخلق أدب رفيع ، عميق ، طويل الجلد ، يزري بمشاغل الصحافة وحاجاتها (١) ، وتصان معه كرامة المفكرين وتسمو به أقدارهم • وهو ما نستبشر ببزوغ فجره في مصر أخيرا ، بعد أن توافرت لها من مطابعهـا ودور نشرها ، ولجان تأليفها وطول مراسها في حقول التجربة ، سبل السمو فوق النشر اليومي القصير النفس والعمر ، وأسباب الجـد والحزم في انتاج التفكير والمعرفة •

---

(١) عندما توجت مؤسسة (نوبل) كتاب روجه مارتان دوغار (صيف عام ١٩١٤) بالجائزة الكبرى ، زحف الصحفيون الى المؤلف المعروف بعميق صمته ووفرة انتاجه،ليتحدثوا اليه بشؤون الادب ، فقال لهم : (عن الادب ••• لا تكلموني ، اصنعوا منه ••• أرجوكم •••) •

هذه قصص ، ليست كلها من مواليد هذه الأيام • بل ان أكثرها جرى في روعي ، وحياتي ، وتحت قلمي بين أعوام ١٩٣٠ و ١٩٤٠ • وليس الا « العانس » و « ربيع يتضور » و « المعركة » من نتاج الأعوام الثلاثة الأخيرة• ومن هذه القصص كلها ، قديمها وحديثها ، ما كتب مرتين في حقبتين متباعدتين كأن تمر الحادثة أو الفكرة في باريس مثلا عام ١٩٣٣ فتضرب حامية على الفور ثم تضرب مرة ثانية عام ١٩٣٧ وهكذا •

فان كنت أحاول اليوم أن « أصنع فناً » في روايتين كبيرتين أعدهما ، وأسير بهما وأرجو أن يتاح لي انجازهما قريبا ، فانني فيما يطالع القارىء من قصص ، حتى المكتوبة مرتين كما أسلفت ، لم أجترح أية محاولة في اصطناع فن • ولا يبعد أن يكون ذلك من محاسنها ومساوئها معا : ان هذه القصص ، كما يقول الكاتب الفرنسي « آبيل بونار » في بعض آثاره ، انما هي من عمل تلك الساعات التي يشعر فيها المرء بالحاجة القصوى الى ارضاء نفسهفحسب•

على أنني وقد وضعت هذه القصص لأرضي نفسي ، وما أشق سخرةارضاء النفس ذات الأهواء ، فلي أن أسأل : هل أرضيتها ؟ سؤال خطر لي وأنا أنسخها عن مخطوطاتها • وسرعان ما أتى الجواب : لا !

اني لأذكر حين كنت أفرغ من احداها أنني ضمنتها من نفسي كل ما أحب وما أبغض • فكم هي اليوم ، في نظري ، أصغر وأضيق من أن تتضمن شيئا ! كأني الطفل يقضي ليلته مع الدمى حتى اذا أصبح ملها واجتواها • وقد أصاب الروائي فرانسيس كاركو الهدف اذ قال متحدثا عن شعوره كمؤلف : « انني كلوحة تفتش عن اطار لها • » أو لست كذلك ؟ بلى ! هو الأمر بعينه • ولكنني خرجت من تلك الأطر التي صنعتها ذات يوم لاحيط بها صورتي ، ورحت أفتش عن أكبر ••• وأجمل • ويخيل الي أنني سأظل دائباً أفتش حتى أظفر بالاطار الأخير ، أو يظفر بي اطاري الأخير !•

أليس في « التفتيش عن الاطـار المفقود » كـل تلخيص القانون الأدبي الخالـد ؟•

فأي عبث ! وكم معجزة في هذا العبث !

دمشق نوار ، ١٩٤٤ فؤاد الشايب

الشرق شرق

من وحي باريس

وقف حائرا في مفرق الطرق لا يعرف كيف يتجه • أمامه الطريق التي تؤدي الى الشارع العريض • ووراءه الطريق الفرعية التي يطل منها بناء « الأوديون » • وعن يمينه المنفذ الوحيد الذي يكاد بـين المطعم على منحناه • وعن يساره الزقاق الضيق الذي اعتاد أن يتسرب اليه أحيانا ، فريدا ، واضعا يديه في جيبه أو داخلا احدى المكاتب • هـو الزقـاق الحزين كنفسه الضالة •

وقف حائراً لا يدري كيف يتجه ، مع أنه عندما هبط سلم الفندق كان يعرف لماذا يخرج في هذه الظهيرة وما قصده ! ان رغبات وخواطر تزاحمت في رأسه ، وأفسدت عليه صفاء اختياره • وبدا في لحظة ما ، مذهولا ، مسرورا ، ضائعا بين ألف نداء ونداء ، منذ صافحت وجهه شمس النهار • وكان كل صوت يناديه الى اللذة والمتعة والحياة • لقد فكر أن يصل الى ا« الأوديون » فيستشير لوحات الأروقة عن المسرحية التي ستعرض هذه الليلة • على أن الكتب ، في واجهة المكتبة القريبة ، كانت تناديه وتغمزه وتشير اليه • وهو وان يكن جائعاً ، ونسي جوعه، فلا يزال ينظر صوب المطعم • ولكن ماذا يشتهي بالفعل ؟ فأطرق وحاول

أن يعرف ماذا يريد ! لعله كان يتمنى لو ترافقه فتاة شقراء ، في هــذه الظهيرة الفاترة من نهار خريفي شمسي قلما تجود بمثله أيام باريس ، فيتأبطها ، ويغشى معهــا حديقة « اللوكسمبور » ويلهو بضع ساعات برمي فتات الخبز الى عصافير الدوري الأليفة، تهبط جماعات جماعات على مقاعد المتنزهين • فيبتسم لهذه الرؤى الشهية اليانعة ، ويلتفت نحــو الواجهة حيث يخيل اليه أن صوتاً يأتيه منها قائلا : تعال ••• تعال ••• ألم تعدني البارحة بأن تأخذني اليوم ؟ ألم تعدني بدفع ثمني ، واعتاقي من هذه الواجهة الباردة ، لأعيش في جيبك أو علــى رف الموقــد في غرفتك ؟ ويبتسم الشاب ثانية ، كأنه يعتذر ثم يحاول أن ينقل خطاه ، فيتردد ثم يلبث في مكانه •

وفجأة مرت سيارة تاكسي ، فخففت السير في المفرق ، ومد السائق رأسه ويده ، وصاح بالفتى الواقف : هيه ••• أيتها البقرة الشرقية •• أما انتهيت من أحلامك ؟ فذعر الفتي وانتفض ، واجتازته السيارة وهو يسمع قهقهة سائقها ، وما لبث هو نفسه أن ضحك وقال لنفسه : صحيح أنا بقرة !•• يخيل الي أنه عرفني من منظري وسحنتي ، واختياري هذا المكان للوقوف ، كأنني بقرة جاثمــة في مرج أخضر ، تجتر وترسل في الفضاء نظرات واسعا تحالمات • ثم اختار طريقه صوب المطعم •

كان اخوانه في المطعم ينتظرونه كل يوم • وكان يخجل أن يغشى الأماكن العامة وحده • فان هذه الحياة الجديدة تبهره وتربكه ، فكان انسه عظيماً بأبناء البلاد، من رفاقه الطلاب، عندما يشاهدهم كتلة واحدة، في الجامعة ، أو المقهى ، أو المطعم ، يشكلون دائرة عربية ، ذات لسان عربي ، وطابع عربي • فسرعان ما انضم اليهم •

كانوا ثلاثة ، دعا كل منهم رفيقة له الى طعـام الغداء ، فقد موهن الى الفتى الذي ازداد ارتباكه في هذه الحلقة الصاخبة . وما أن شعرت الأوانس ببطء حركات الشاب ، حتى رحن يتحرشن به ، ويطرحن عليه السؤال اثر السؤال. ولم يكن الضيف الجديد بالقبيح البليد، ولكنه شعر أنه أقبح الوجوه ، وأبلد العقول . قال أحد رفاقه وهو يكبت ضحكة : يا أوانس !.. ان رفيقنا من أبناء العوائل العربية النبيلة ، وأحد الشباب النابغين .

فقفزت احداهن بالجواب : لا فائدة ياصديقي من التعريف.فالنبوغ مشهود في عينيه . وضحك الجميع دفعة واحدة ، بينما كانت تتقدم من المائـدة فتاة مليحة تتأبط كتبا ، فتحيي الجميع بلا كلفة ، ويرحب بها الرفاق بعد أن تصافحهم واحدا اثر واحد . قال أحدهم : ألا تأكلين ؟.

ـ لا ..

ـ حسنا تفعلين . ألا تشربين كأسا ؟

ـ لا .. أشكرك .

ـ أحسن ...

قال آخر : ولكنك اذا جلست على الأقل ، قدمنا لك أحسن الشباب، صديقنا الجديد . وعندما نظرت الفتاة الى الشاب نظرة ممعنة قالوا لها : هو أحمد . فابتسمت ونهض لها فصافحها . ثم اتخذت مقعدا لها حول المائدة ، الى جانب أحمد ، بادية السرور محتفية بالمعرفة الجديدة ، وعادت الحلقة الى اللغط والمزاح .

كانت « لوسي » ثالثة الفتيات اللواتي عرفهن منذ هبط باريس . فلم تكن الاولى شقراء تماما ، وكانت الثانية شقراء ، ولكنها ثرثارة ، تضحك لأتفه الأسباب . وهو ، وان لم يكن بامكانه أن يحدد علـى

الضبط صورة الجمال الذي يحن اليه ، فقد كان يشعر بهذه الصورة شعوراً خفياً • لقد صادف الكثيرات في الحي اللاتيني ممن استهوين قلبه ، وقربن من صورة خياله ، مرافقا أو مراقصا أو مشاهدا ، فلم يكن له الا خمس دقائق ، أو أقل ، أو أكثر ، كما تكون الظلال لجهة من الجهات ، في فترة من فترات النهار ، أو كما تكون سيارة التاكسي للراكبين • وكانت « لوسي » ثالثة الفتيات اللواتي عرفهن معرفة مكالمة، ومجالسة ، والفة ، فعجب من نفسه كيف يحدثها بطلاقة ، وعجب منها كيف تصغي له • لقد ردت عليه ثقته بنفسه •

لقد أحب « لوسي » بل انه شعر باستعداده لحبها • انها شيء من خياله ، شقراء ، مهذبـة ، لا تسخر من وحشته ، ولا تقطع عليه سبيل تأملاته • ان فمها واسع ، ولكن ابتسامتها ساحـرة ، وأسنانها بيضاء ناصعة ، كأنها اذ تضحك ، تضحك كل سن في فمها وتتلألأ بشراً وانساً• ثم لماذا يغالي في الانتقاء والانتقاد ؟ لقد مضى زمنا بالحرمان المطلق ، وهـو يحاول عبثا الاتصال بامرأة • ولقد كان بامكانه أن يصوم عامـا وعامين في دمشق • أما في باريس فلا سبيل الى ذلك ، والعالم متفق فيها على أن يعيش أزواجا وأعشاشا • عجيب أمر هذه المدينة ! ان الناس يعانق بعضهم بعضا ، في كل مكان تحت الشمس ، وتحت أنف الشرطي، في الفندق ، وفي الصف ، وفي الكنيسة ، وكيفما كان ، وأنى اتفق ، بلا حرج ولا حذر ، وقوفا ، جلوسا ، صباحا مساء ظهـرا ، قبل الأكل ، بعد الأكل ، قبل النوم وعلى الريق • والمرأة في كل مكان يقع عليه نظره• فصاحبة الفندق امرأة ، والمديرة ، والخادمات • والمرأة في المخزن الذي يبتاع منه منديله ، والدكان التي يأخذ منها تبغه • في المقهى ، والمطعم ،

والمدرسة ، في السيارة ، والترام ، والمترو ، تبيع الجرائـد ، وتكنس الشارع ، وتجر العربات في سوق الفواكه والخضار • فاذا كان الفتى دقيقا ، حساسا في ملاحظة المرأة ، والعجب من شأنها ، فلأن عينيه مـا تعودتا من قبل ، مثل هذا الذيوع والانتشار • وانه ليخيل اليه مراراً أن المرأة ، وهي تحت متناول اليد ، ملك مشاع كالهواء والماء ، ثم لا يلبث أن يدرك حقيقة قاسية • وهي أن المرأة نفسها تختار قبل الرجل ، لاسيما اذا كان حييا في أساليب نفسه • ثم كانت خيبته أليمة منذ ليلتين عندما سمع امرأة تعترض طريقه لتقول له : تعال ياغرامي •• ألا تضمني ذراعاك ياحبيبي ! فأدرك أنها دجاجة ، بائعة لذة ، وذكر أن سواها يعز عليه ويمتنع دونه ، فثارت فيه أنفته وفر هاربا •

لقد تعذب وتوجع وشعر بمرارة الوحدة ، ووحشة الغربة • وخيل اليه أنه ناكص راجع الى بلاده على ظهر أول سفينة ، والا فكيف يعيش في جنة كل أشجارها محرّم ، فلا يقدم له منها سوى الثمار الساقطة ؟

وهنا تبرز لوسي في حياته ، وتطل من أفق يأسه القاتم ، فتشرق في دنياه اشراقة شمس باريس بعد احتجاب طويل ، وهاهـو يتأبطهـا بشوق وخفـة في حديقة « اللوكسمبور » عائشا حلمـا من أحلامـه الجميلـة •

انها شقراء كشمس الأصيل ، خفيفة كأغصان الصفصاف ، مرحـة ضاحكة كالبحيرة ، مؤنسة مسلية كأعز الكتب • وكان يشعر الى جانبها أنه ينشد ويغني ، وانها الأنشودة التي ينطق بها والصوت الذي يند عن جوارحه المشتاقة • وكان كلما ودعها مساء أو ظهرا ، على أن تلقاه في يوم ما ، هرع الى غرفة أحد مواطنيه القدماء يطلعه على تفاصيل ما جرى

له مع لوسي ، مسترشدا طالبا نصيحة ، وكان رفيقه يقول له : لا تكن جباناً يا أحمد • جرّب أن تدخلها غرفتك • فغالبا ما تكون المرأة قد أذعنت •• عندما ترضى الخلوة في غرفة رجلها •

وكان أحمد يقول لنفسه : فيم التسرع ، وما معناه ؟ وكيف يدعوها الى غرفتــه كما تدعو العناكب الذبــاب ؟ ولماذا ينقض على الجمــال انقضاضا كأنه يفترس أو يغتال ؟ ولماذا لا ينعم بالنعمة رويدا وعلى مهل ؟ وهل يحسن بالانسان ، عندما يتلمظ الجمال ، أن يزدرده ويبتلعه دون أن يستمرىء لذة طعمه ؟ ولماذا يلتهمه كالثعابين ، وبامكانه أن ينقر فيه نقراً خفيفاً كالعصافير ؟ •

وأعجبت لوسي بأحمد حقا • على أنها ما كانت تلفظ كلمات الحب • وكانت تصغي الى أحاديثه في الحقوب والأدب كأنها تسمع لتلميذ مجتهد تبدو عليه بوادر الذكاء • ولقد كان من سر افتتانها به ، ما عرف عنه ، وما هو عليه من حياء وخجل ، كأن عينيه اللتين لا تحدقان الا لتنكسا الطرف ، كلما فتن المرأة بالرجل الطازج ، الحيي ، المفعم حباً ، المشتعل تفكيراً ولقد اشتاقت ذراع هذا الرجل الحالم الوادع كما يشتاق المكدود باعا من الارض يرتمي عليه ليستريح وينام • لذلك كانت له كما كان لها قطرة في جدب ، وهديا في تيه من يأس • ولذلك أيضا كانت فترة التعارف القصيرة منطلقا مباشرا نحو العهد السعيد • فلماذا يسأله الرفاق كلما رأوه : ماذا فعلت يا أحمد ؟ وهل وصلت لوسي الى الغرفة ؟ انه ليضطرب ويشمئز ، ويحاول تجنب الرفاق وهرائهم • فهو لا يرى في لوسي حتى الآن سوى عينين زرقاوين ، صافيتين مخلوقتين ، على صورة خياله ومثال وهمه وتصوره • وحسبه من كل مافي لوسي من فتنة وجمال أنه يستدفىء

مطمئنا في كنفها ، ويستحم ناعما في بعض ما يفيض حولها من نفسهــا الكريمة فيلوذ بهــا صاغرا ، بكل مافي القــوة من حنان ، اذا لاذت واطمأنت •

قال أحمــد مخاطبا لوسي ذات أصيل بلهجــة من اكتشف كنزا : لوسي ••• سنقضي هذه الليلة في مسرح الأوديون ••

قالت وهي تتأمل فرحة العينين الطفلتين في جبين الرجــل : ماذا في الأوديون ياأحمد ! أجاب منتصرا : مسرحية « تريستان وايزو » أنبل غرام عرفه الكون وأعنفه ، أنبل وأبلغ من روميو وجوليات •

قالت وهي تهمهم : لا بأس • ولكني لا أحب مشاهدة هذا النوع من الغرام البائس والفناء الأسود •

انها تصارحه وتجابهه بحقائق باردة لأول مــرة فتقول : ان نفسي لتجيش اذ أشاهد مثل هذه المسرحيات ، كأنني آكــل بقلاوة عربية ، حادة الحلاوة ، أو أشرب قهوة شرقية ثخينة دسمة لزجة ! أحمد ••• أطلب عفوك • هل سمعت بجريمة وعقاب ؟

أجاب الفتى راضخا : كيف لا ؟ لقد قرأت دوستويفسكي وأحببته• انه مصور بارع لاضطراب جيل شقي ، ووساوس أرواح غير عادية !•

قالت : اذن سنشاهد هذه الليلة مسرحية « جريمة وعقاب » على مسرح مونبارناس •

وقالت لوسي وهما يشهدان مسرحية دوستويفسكي وبينما تشد على يديه بيدها : أحمد ان ممثل دور البطــل « راسنكولينكوف » ، يكاد يجن !•

ــ لمــاذا ؟

ــ لأن استمراره عاما كاملا على تمثيل هذا الدور المملوء عنفــا

واضرابا قد هتك أعصابه ، وقطع أوتارها • ألا ترى الى وجهه الموتور كيف يغدو شيطانا رهيبا كلما مثل أزمة شعور واختناق عاطفة ؟ لقد غـدا بنفسه راسكولنيكوف ؟•

ثم قالت بعد فترة سكون: ألا تعتقد أن الحياة التي يحياها الانسان لا تلبث مع الأيام أن تفرض عليه نفسها وذوقها ولو تعارضت مع نفسه وذوقـه ؟•

قال بعد سكوت : لا أدري •• ربما !•

كانت لوسي تلك الليلة ، مضطربة ، حادة المزاج ، فلم ترفض دعوة أحمد لها الى غرفته • كانت المرة الاولى • لقد مشت الى جانبه لصيقة به، تضغط على ساعده باصبعها • وكانت أسنانها تصطك برداً ، وتدخـل نفسها فيه كأنها تحب أن تستنشق من جسده رائحة الرجل والدفء • وقبل أن يصلا الى الفندق خاطبته قائلة : ألا تجلب معك من هذا المسكر القوي الذي تسمونه بلغتكم « عرق » ؟ انني أحب هـذا العنف في مسكركم • • انه دواء للصداع والبرد والهستيريا •

— وهل خرجت بنفسية راسكولينكوف !

— هم !•• هيه !•• ثم صمتت !

وفي الغرفة عندما تلاشت على السرير العريض ، ظـن أحمد أنهـا تعطي نفسها وتدعوه اليها • على أنه عندما اقترب منها رآهـا مغمضة الجفنين لا تبدي حراكا كأنها تنام • فلبث يتأمل دون حراك هذا الوجه الساكن المطمئن لجو غرفته وبسطه جناحـه ، فرعش في ضميره فـرح خفيف ، وهو يرى لوسي بين يديه وتحت متناول شفتيه • انه يملكها • وعلى وجهها الراكد الهادىء صك هذه الملكية توقعه ابتسامة رقيقة •

أيأخذها بين ذراعيه ؟ يالله انها تنام • أيهصرها بكفيه ؟ يا الله انهـا سريعة العطب • أينفجر عليها كالجحيم ؟ يا الله ما أبرأ هذه الوردةالناعمة تحلم بأمان • فكيف يجوز له أن يزعجها ، وربما لا يخطر لها في بال ، أو يجول منها في رغبة ؟ أو يسوغ لك ياأحمد ، أن تنقض عليها كوحش وتأخذها كغول ، وقد لجأت اليك ، وأمنت في فراشك ؟ لا ! لا ! ثـم أخذ عباء من المشجب فأرخـاه علـى جسدها بحـذر • ولكن لوسي استفاقت من ذهولها أو من نومها وتطلعت بعينين ناعستين نحو الرجل، حارس هذه الضجعة الذاهلة ، ثم ما لبثت أن قفزت الى الارض وقالت : عفوك ياأحمـد • لقد سهوت • أنـا ذاهبة • ودون أن تنتظر جوابـا اختطفت قبعتها ، وفتحت الباب وخرجت وهي تردد : سأخطيء المترو • الى اللقاء • تاركة فتاها مسمرا في أرضه ، لا يفقه شيئا مما يجري • لقد كان بوده أن يرافقها في المترو حتى بيتها ، ولكن فطن الى ذلك بعد ربع ساعة • فحزن ونام •

في مساء اليوم الثاني ، فاجأته على غير موعد ودخلت غرفته بينما كان يهيء دروسه • فدهش للمفاجأة ، وحاول أن يسألهـا عن سبب انهزامها مسرعة ليلة أمس ، أو يعتذر لها عن نسيانه اللحاق بها لمرافقتها• ولكنها كانت ضاحكة ، مستبشرة ، كأن لا خاطر يزعجها ، ولا فكرة تحملها عن اليوم الغابر ، فلم تدع مجالا للسؤال والاعتذار • وتناولت العشاء معه •

انه تطور جديد في حياة الحبيبين • فها هي لوسي تزوره كل يوم بلا موعد • وتدخل عليه بلا كلفة بعد تلك الليلة • وها هو ينطلق في أحاديثه معها فيقص لها سيرا شرقية ، اطارها الصحراء ، وقوافـل

الجمال ، والقمر ، والزهر ، والعطر والنسيم ، ولو لم يكن يعرف عن هذه الحياة شيئا • وظل جسد لوسي ذاك الشيء الذي يحاذر لمسه ، ويتورع عن التفكير به لنفسه •

في الليلة الرابعة ، كان مطلع حديثه لها : لماذا لا تحبين البقلاوة العربية يا لوسي ؟ أصحيح أنها ثقيلة تجيش لها النفس ، وتختبط الاحشاء ؟ غريب ! فضحكت الفتاة فخال الفتى ضحكتها تعبيرا جميلا لوقع سؤاله في نفسها • على أنه لم يكن يسمع صرير أسنانها ويرى انقباض عضلات فكيها • وعندما صمتت وانحنت على المائدة آخذة ذقنها بين كفيها قال لها : ماذا أصابك ؟ أجابت : أنا مريضة • فاضطربت حركته وقال مستعجلا : أأجلب لك حبة اسبرين ؟ فشكرته • ثم قامت لتنصرف فرافقها في الميترو •

في الليلة الخامسة أهدى اليها أحمد صورته ، وقدمها بكلمات جميلات ظلت لوسي ترددها معجبة بها كل الاعجاب ، لانها شيء من الشعر الذي تحبه مرغمة•وأطلعها على مجموعة من صوره وصور دمشق وصور أبيه وأمه واخوته والعائلة • لقد كان يشعر بضرورة ايجاد « الجديد » بينه وبينها مهما يكن تافها وكان يرتبك اذا عز عليه الشيء ، وأحس بشفتها السفلى تلتوي غير مكتفية •

في الليلة السادسة ، أفضى الحديث عن الشروق الى فوائد الختان وضرورة تطبيق هذه العملية في سبيل الصحة • فسألت لوسي : وأنت اهميد ••• هل أنت مختون ؟ فقهقه كأن السؤال راح يدغدغه تحت ابطه وأجاب : كيف لا ؟ ثم أطرق خجلا • ولبثت هي تتأمله باستغراب •

وكانت الليلة السابعة فريدة في حياته كلها • لقد راقص لوسي حتى

الفجر ، ولاول مرة يقبلها طويـلا • فطوقها بذراعه ومشى معها حتى البيت في بكرة الصباح الباريسي الازرق الجميل • كان يظن أنه تزود منها ما يكفيه دهرا • ولكنه ما لبث أن اشتاقها منذ طلعت شمس النهار نفسه •

في الليلة العاشرة ، أحضر الفتى زجاجة من « البورتو » الفاخر على المائدة ولبث ينتظر • وعندما دخلت ، صاحت وهي تغالي في ابـداء دهشتها : أوه ! على شرف من سنشرب هذه الليلة ؟ أجاب بلا تردد : على شرف حبنا • فهمهمت الفتاة بقليل من السخرية المحببة وقالت : هذا كثير •• ورسمي جـدا • ألا ترى كذلك ؟ فأطرق هو وأردفت تقول : ألا ترى يا اهميد أننا يجب أن نشرب نخب الشرق والقوافـل والليل والقمر ؟ ثم رفعت كأسها الحمراء بين أصابعها الرقيقات وظلت تحدق فيها ريثا ، بينما تدغدغها خيوط النور ، وجرعتها دفعة واحدة • ثم انطلقت تضحك كأن الخمر ما كادت تلامس أحشاءها حتى صعدت الى رأسها • وبدت تلك الليلة ضاحكة ساخرة ، قوية ، شرسة أيضا • وكانت كلما استطارت شررا أو عنفا ، لان أحمد ، وهدأ حتى يكاد يميع ويذوب •

لقد صعد الدم الى وجنتيها ففارتا فورانا • والى أذنيها فغدتا كورقتي وردة بين اشراقة خفيفة من الشعر الاشقر • أما فمها فكأنه رسم من جديد ليطلب الخمر ويشتهيها • وأما عيناها فقد صارت عليهما غشاوة مبتلة ، واتضحت الزرقة بهما كأن النشوة قد صقلتهما صقلا • وكانت تضحك لكل ما يقوله أحمد ، وتجد لذة في أن تكرر : لا أصدق • فاذا أكد وأقسم انفجرت ضحكا • وكانت تخبط قدميها بالارض ، أو يديها

على المائدة ، كأنها ترقص جالسة ، أو تطير مكبلة • ولم يكن ثمة ما هو أعز لديه من أن يراها تشع بالابتسامات ، وتفيض بالسرور كأنها احدى أساطير المرح • وفجأة ضربت كتفه بيد قوية وصاحت به : أهميد ••• ألا ترقص ؟ فقال مذهولا : بكل سرور ، ولكن كيف وليس لدينا موسيقى ؟ قالت : وما شأن الموسيقى بنا ؟ سأصفر لك ونرقص على الايقاع • على أنها ما كادت ترقص قليلا حتى سحبت نفسها من ذراعيه وارتمت على المقعد • لقد أخذ وجهها بالتحول والتلون ، بين أحمر مخنوق ، وأصفر ذاهل ، حتى غدا شيئا لا يوصف • وعندما تلاشت على المقعد متعبة ، انحسر ثوبها عن ركبتها ، فبدا جزء من جسدها المورد ، كأن الشمس سفعته أو الخمر صبغته • ومالت عين الفتى اليسرى فرأى • وأحست هي فلم تحرك يدها ، ولم تأبه لانبثاق هذا الجزء من جسدها الرائع • بل تركت يديها متلاشيتين على جنبيها كأنها محمولة في الفضاء فاقدة الوعي • ثم ما برح الثوب ينحسر أكثر فأكثر ، وينسحب بتمهل وصمت ، حتى لم يبق للجسد بعد هذه الاطلالة البينة الا أن يصيح وينطلق •

خطر للفتى أن ينبه فتاته الى هذه الجلسة غير العادية ، لكنه عدل حرصا على شعورها وتجنبا لاثارة خجلها • فدار على بعضه نصف دورة، وحول بصره كأنه يجيب بعزة ، وشرف ، وصمت ، على ثقة لوسي به • اذ أنها لو لم تكن واثقة مطمئنة ، لما تركت لحركاتها حريتها • على أن ذراعي لوسي ما لبثتا أن ارتمتا على كتفيه وسقط رأسها على صدره ، فذهل واضطرب وهتف بها : لوسي ••• لوسي • ماذا أصابك ؟ قالت وهي تتنفس بشدة : لا شيء ••• لا شيء • قال مضطربا : ألعبت الخمرة برأسك ؟ فأجابت كطفل يرى حلما : أنا مريضة •

ثم رفعت رأسها عنه، وقامت لترتمي على سريره ، محمومة مكدودة، كأنها جاهدت جهادا نزف له دمها ، وأهرقت عصارة جسدها • وكانت ارتماءتها على السرير طيعة لينة ، غريزية ، كالثمرة دفعتها أنامل النضوج فسقطت على الحشائش الخضر في فيء الشجرة الحانية الاغصان •

وهو ••• أحمد ••• لم يكن يفقه ما يحدث • ان كل ما يراه يبعث النشوة في صدره ، ويفعم بالحب قلبه ، فلم يكن في دوار الطرب ليقف فيفكر ، أو يطلب مزيدا • ان النعمة قد فاضت عنه ، كما يفيض البحر صب في فنجان ، فهو مكثور ، مغمور ، مضطرب •

هي الليلة الحادية عشرة وأحمد ينتظر كالعـادة اشراقة لوسي في غرفته • غير أنها لم تأت • ولم يرها في الليلة الثانية عشرة • لقد سأل نفسه عنها ولم يكن قلقا • ثم لم تلبث الحيرة أن فاجأته ، والجزع أن أخذ بقلبه لان لوسي لم تأت فيما بعد • انتظر يومين آخرين • وفي اليوم الخامس انطلق مبكرا في حي الطلبة يتصفح الوجوه التي تعرف لوسي والتي يمكن أن تعرفها • لقد أنكرت الرفيقات معرفة أخبارها ، وأمـا الرفاق فراحوا ساخرين عندما رأوا أحمد بعينين ضائعتين ، يتنقل من مقهى الى مقهى ويغشى مطعما اثر مطعم •

لقد برّح به الشوق ، والقلق ، حتى كاد يتلف • وبدأ يشعر أنه مريض • وقد يغدو مسلولا • انه يتنشق دخان المعامل • بل انه يعيش في مدخنة معمل ، في بلاد يكتنفها الضباب ، ولا تطلع شمسها الا مرة في الشهر اذا جادت وأحسنت • انه لا يستمرىء هذا النوع من الطعام الذي لا دسم فيه ولا ملح ، ولا يطيق أن يرى رحى المدينة الكبيرة تدور على صدور الملايين • ثم ما فائدة العلم ؟ وهل جاء يتلقى علومه

في هذا الجو من الصخب والعجاج والضباب ؟ ولقد كان يخيل اليه أنه ما جاء الا ليرى لوسي • وسيعود عندما تعود معه •

وها هو يعثر أخيرا على ورقة كتبت عليها عنوانها ذات يوم ، قبل أن تتمكن بينهما أواصر الحب • وما كان قبلا ليهتم بعنوانها وبيتها ، فصمم أن يراسلها فكتب اليها :

لوسي ! أين أنت ؟ هل تشعرين بحرارة هذا النداء ؟ أين أنت ؟ أمريضة فذهلت ؟ أو مسافرة فسلوت ؟ هل تركتني مازحة أم عامدة ؟ انني لا أفهم ! لقد كان كل شيء يدلني على أنك أحببت • فكيف أدينك وأحكم عليك ؟ وبم ؟ أين أنت ؟ وأين تقيمين • وما هي أخبارك ؟ انني أعيش في هذا الجحيم الذي هو مدينتك الصاخبة ، الداخنة ، وقد قطعت على نفسي عهدا أن أبقى بها ما بقيت أنت الى جانبي ! ان مدينتك تسحقني ، ورحاها تدور فوق عظامي • يخيل الي أنني أختنق أو تفترسني الوحشة • انني أنتظر وأنتظر كل مساء وكل صباح ، وكل ساعة ، وكل دقيقة حتى تعودي •

واستطاع الفتى أن يصبر ثلاثة أيام قبل أن يقرأ جواب رسالته •

أيها السيد العزيز

كنت في زيارة عند عمتي في الضاحية وعدت اليوم فقرأت رسالتك الطيبة التي أجيبك عنها دون ابطاء •

ان كل ما أرجوه منك يا سيد ، أن تكف عن التفكير بي ، أو التفتيش عني ، أو ملاحقتي ، أو مراسلتي • ولي في ذلك حجة قد تدركها وقد تجهلها ••• وسيان لدي •••

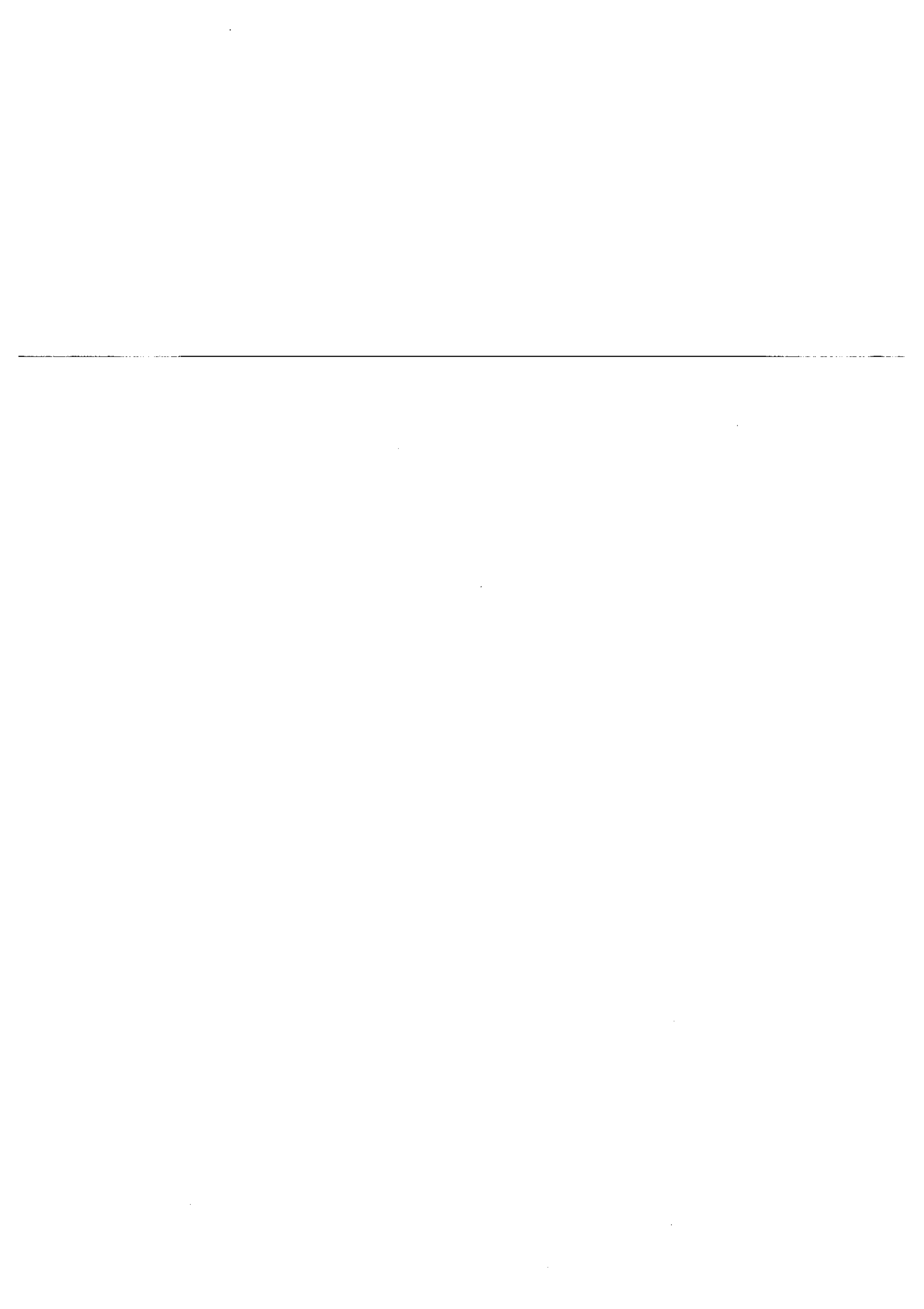
انني لا أقول : لا أحبك • بل أقسى : انني أمقتك • ان نفسي

لتجيش وأحشائي لتختبط اذا رأيتك كأنني تخمت بقلاوة حلوة ، وقهوة خاثرة • وما اخالني أحس بعد اليوم اذ أرافقك ، الا كما يحس التائه في الصحراء ، لا يؤنسه بهـا سوى رنين الاجراس المعلقـة في رقاب الجمال • أما الرحى التي تدور على عظامك ، فأنا أرقص عليها وأزداد نشوة ومتعة • ان رئتي أيها المسكين ، ألفتا استنشاق الدخان حتى بت أشتاقه عندما لا أجده • فكم أرثي لك • لا تنتظر ـ أقول لك ـ ولا ترج ، ولا تفكر لانني لن أعود •

اسمح لي يا سيد ، أن أرد لك صورتك الجميلة جدا التي قدمتها لي ذات مساء باهـداء بليغ : « اليك يا ملاكي ••• أقـدم صورة رجل •••• » •

يا للاسف ، أيها السيد الطيب ، أنا لست ملاكا •• وأنت ••• أنت لست رجلا : الـوداع !





أحلام يولاند

من وحي باريس

عجبت به منذ عرفته • فقد كانت « يولاند » من الطبائع الاوروبية الرقيقة الشاعرة ، وكان حسن من النماذج العربية المنحوتة ، طولا وعرضا ، وسمرة وخشونة ، على أصول شرقية ، وسمات صحراوية •

وأعجب بها هو أيضا ، لأن الغرب قد تمثل خير تمثيل في ذكائها المثقف ، وملاحظاتها الدقيقة • وهي وان تكن من دوحة ارستوقراطية انقرضت ، فقد ظلت تحتفظ بأرستوقراطية فكرية أجدى وأبقى • وأعجب بها الى جانب ذلك لانها مثال لسذاجة الانثى عندما تتكلم عن الشرق وتتحدث عن الشرقيات • فلم يكن يرى نفسه صغيرا أمام ذكائها واطلاعها الا رأى نفسه عظيما جليلا ازاء سذاجتها وحبها الشرق فيما تتصوره عنه وتحلم به • على أنه لم يكن يدل عليها بتفوقه ، ولم تكن هي تفاخر بمعرفة يجهلها أو بمدنية لا عهد له بها ، بل كانت تقول له اذا أنست منه بعض القصور : الله آلم •• موش هيك ••• يا هسان ؟

بقي أن نعلم اذا كان هذا الاعجاب المتبادل بنفسه ، حبا مموها ، يقصد كلا الطرفين حجبه ، للغزو به على طريقة « حصان طروادة » •

هذا أمر لم ندركه لان علاقة حسن بيولاند ظلت لدينا مجهولة النتائج .

على أن حسن يقول أن الفتاة عندما عرفته في أحد الانديه ، وطاب حديثها معه وأنسها به صارحته أن رغبتها فيه ليست الحب ، وأنها ملت تلك الاساليب التي يلاحق بها الرجل المرأة في شوارع باريس وأنديتها . وقد صارحها هو بدوره مؤكدا لها أن تقربه منها لم يكن حبا . فهو يكره العيون الواسعة الزرقاء ، التي يجول فيها الذكاء جولات ظاهرات ، ويخشى الانوثة المتحصنة بأشعة من لهب الذكاء وقوة الارادة . وفوق ذلك فهو لا يحب هذا القد الأهيف حتى النحول ، وهذا الصدر الرشيق حتى الضمور . وانه ملازم فطرته العربية في حب الخصر الدقيق والردف الثقيل والصدر الناهد ، والقد المترنح تعبا وغنجا . وان كنا لا ندري فيما اذا كانت صراحة الرجل قد جرحت أنوثة يولاند ، فاننا نعلم عن طريق حسن أنها أفهمته صريحة أنها وان كانت تحب الرجولة القوية والعضل المفتول فانها راغبة عن مثل هيكله الضخم ، ووجهه الاسمر الاصفر ، المملوء بثورا . وهكذا فقد اجتمع الشرق والغرب ، على الاقل ، مرة واحدة على ما بينهما من تناقض وتباين .

ان أعجب ما أعجب به حسن من رفيقته ، شعرها الاصفر الذهبي ، وأما هي فقد شغفت بفمه حينما يبتسم فقط ، فتظهر أسنانه البيضاء بين شفتيه السمراوين المشربتين بحمرة خفيفة ، وقد اشتهى حسن ذات يوم قبلة من تموجات الذهب في شعرها السبط الناعم فنالها دون كلفة . ولم تكاشفه يولاند حتى الآن بأية رغبة في قبلة من أسنانه .

ثم ان يولاند كانت مفتونة بالشرق أي فتنة . وأحب ما أحبت من كتّاب بلادها سيرهم التي عاشوها في صميم السحر ، وكتبوها ، ومن

هؤلاء كلود فارير ، وبيار لوتي • وقد اقترحت على صديقها ذات يوم رحلة الى الشرق عن طريق قصبة الغليون ، عن طريق الافيون ، طريق العاجزين عن الوصول اليه بالاقدام • فأبى وتمنع بحجة أنـه لو فعل لفقد ذات يوم متعة النظر الى الشرق بحاسة النظر واللمس • انه يخشى ذلك ، ويخشى أن يمقت بلاده وهو يعيش فيها •

ـ ثم لماذا العبث يا يولاند ؟

ـ عبث ؟ أريد بعض الانعتاق !

ـ ولكن ليست هذه طريق الانعتاق •••

ـ بلى هي نفسها ، الطريق الى اثيوبيا الشرق، حيث تسكرني أرواح الرند من واد لا تغيب عنه الشمس •

ـ لقد أفسدك الادب وطوحت بك مطالعات أشبه بمفرق طـرق يؤدي بعضها الى بعض في دوائر لا ينتهي دورانهـا • أنا لا أفهم كيف يستطيع الذكاء الغربي أن يصطنع لنفسه مثل هذه الاوهام ليتيه بهـا مختارا • انه انتحار الذكاء • فالشرق ، لو تعلمين ، ما هو الا الصحراء المحرقة ، والفقر ، والاديان • وما جئناكم الا لنعرف كيف يعيش سكان الواحات في ظلال الرخاء والذكاء والعمران والابـداع ••• والحركة والعمل والحياة المملوءة بمكافأة الجهد والعناء ، لنأخذ عنكم ونقبس من رقيكم •••

ـ لن تجدوا في واحاتنا ما تطلبون •

ـ ثم هذا الادب المسموم الذي تقرأين ••• هذا الادب •••

ـ انه العزاء الوحيد،في مدينة آلية ، يصطك فيها الحديد بالحديد، وتفنى سواعد الآدميين في اشباع نهم الغول الذي لا يشبع • ألا تحس بشبح الحرب يهدد هـذه الواحات ، واحات الذكاء والابداع ! أنت

لا تعلم لماذا ؟ لان الحديد الذي لا يقوم أوده بالتهام سواعد الآدميين ، صار يطمع في حياتهم نفسها • قرأت أن عاملا سرق من معمل كبير لصنع السكاكين ، سكينا ، عملت يده في اخراجها ، كعامل من ألوف العمال ، ووجد ذات يوم في مخدعه ، جثة هامدة ، والسكين التي سرقها في نحره• أتظن أنه سرقها لينتحر ؟ كلا بل ليقطع بها خبزه وفاكهته • فهل علم وهو يسرقها أنها قاتل بها نفسه ؟ لا ! كذلك فان هؤلاء الملايين الذين يكدحون في واحات الابداع والذكاء ، لا يعرفون أيصنعون أدوات ومنافع ، أم يقدون أسلحة ينتحرون بها ، ويشحنونها عبر البحار ليهاجمهم بها أعداؤهم الذين يكدحون مثلهم في صنع الحديد • الحديد • الحديد • أف • انني أحس طعم الصدأ والدم في مأكلي ومشربي• وأنت لاتصدق! لان أسنانك الحلوة البيضاء ما تحس بينها سوى طعم الحليب والفرصد •

ـ أوه • أنت تمزحين يا يولاند ! لست على الاقل كما تتصورين ، حيوانا بريا يعيش على الحشائش واللبن •

وضحك حسن ضحكة عريضة • وصمتت يولاند صمتا ذاهلا بعدما أفرغت من عروقها ثورتها • ثم شعرت ببعض الحاجة الى الراحة، فوسدها كتفه وهو يقول لها : تنكرين كل ما أرى وأنكر كل ما ترين • فلا أدري معنى لوجودنا معا !

قالت : كنت أود أن أقول أنك غريب في بلادك على ما يظهر كما أنني غريبة في بلادي • ولعل اجتماعنا كان صدفة ، في نقطة الافتراق !

ـ نقطة الافتراق !

قالت يولاند ذات يوم بدلال ورجاء : هسان ••• لماذا لا تأخذني الى الجامع ! أحب أن ارآه •

فالتفت حسن نحونا وكنا زمرة رفاق مسترشدا بالغمز : أتذهبون ؟
قلنا : نذهب • وسرنا نحو جامع باريس •

كانت يولاند تسير الى جانب حسن ، تتلع عنقها الى الوراء بين فترة وأخرى لتتطلع الى رفيقها ساكتا أو متكلما • لقد كان حسن يشعر أحيانا أن يولاند تحبه • ولعل مثل شعوره يخامرها • غير أنهما متفاهمان فلا موجب للحسبان • فهي ليست جميلة بعينيها البلوريتين الزرقاوين • وهو ليس جميلا أيضا بسحنته التي تشبه أحد خدام أمير شرقي في رواية قرأتها • أو أنها تذكر به دائما « عطيل » الافريقي بطل شكسبير • هكذا أنبأته ذات يوم •

قالت له بينما كنا نسير ، وهو صامت بليد : ان لـك عيني نمر شاهدته مرة في حديقة الحيوانات • وبشرتك السمراء ما رأيتها قط في حياتي الا على جلد أفعى تتلوى على يد أحد الحواة السحرة •

قال حسن وبه حدة : أشكرك • بامكانك أن تريني كل يوم وأن تقتصدي خمسة فرنكات فلا تذهبي بعد الآن الى حديقة الحيوانات • أما أنت فتشبهين حرباءة دهستها مرة وأنا أمشي في أحد الحقول • لقد كانت عيناها الخارجتان من وقبيهما مثل عينيك تماما ، عندما كانت تموت • أما ظهرها العظمي العاري فأشبه الاشياء بنحولك الأهيف !

ـ هذا خيال لا أظن أن له في الواقع أصلا • أقسم ما دهست في حياتك حرباء •

ـ وأقسم أنا أنك لا تعرفين لون عيون النمور ولا رأيت حاويا على يديه أفعى تتلوى الا في الروايات • وهل أنا أحسن الاختراع أكثر مما تفعلين !

وكانت الامطار تنهمر سيولا فتغسل الشارع الاسفلتي الوضاء السواد • وكدنا ننسى أنفسنا تحت انهمار الغيث والرفيقان يتندران ويتراشقان النكات • وما هو الا بعض ساعة حتى قطعنا الطريق التي تصل الغرب بالشرق ، والمدينة بالجامع •

انه ليس جامعا على الضبط ، بل سفارة عمرانية شرقية ، أفريقية على التخصيص ، ما الجامع الا دائرة من دوائرها التي هي المقهى والمطعم ، والمخزن والسوق ، وسوى ذلك • وكل مافي هذه الدوائر من مأكل ومشرب وملبس ، شرقي عربي ، افريقي • فنفضنا عنا رشاش الغيث ومسحنا رؤوسنا المغرقة بالمناديل ، ودخلنا المقهى •

كان الزبائن ، وكلهم أوروبيون ، الا فتى زائرا شرقيا غريبا ، يتكومون في كل زاوية ، ويدورون حول كل مائدة يتأملون في الجدران والسقف ، والوسائد والبسط ، وفناجين القهوة وسراويل الخدم وطرر طرابيشهم ، يشربون القهوة ، والنعناع ، ويأكلون البقلاوة وما ماثلها من حلويات شرقية ، شديدة الحلاوة ، شديدة الاغراء بشكلها وصنعها • وكلهم في ذهول واسترخاء ، يحلمون • ثم لا شيء حولهم سوى الغمام ورائحة البخور والقهوة •

نحن في جو شرقي ، كما يتخيله الغرب ، في مسرح ليس على الضبط شرقيا طبيعيا فيكاد يكون من خلق « الكوميدي فرانسيز » • فالمقهى ردهة مستطيلة • منقوشة الجدران بالحفر • مفروشة بالبسط والحصير المتعدد الالوان • تدور بها دكك واطئة ، وموائد صغيرة تعلوها صفائح نحاسية صفراء منقوشة • وكانت الوسائد ، القماشية والجلدية ، من مستديرة ومستطيلة ، ترتمي وتتوزع هنا وهناك داعية الى الراحة والكسل

والاتكاء • وكان السكون الثقيل ، تتخلله بين الوقت والآخر ، أنغام التخت الموسيقي الشرقي المؤلف من عـود وقانون وكمان ، ودف ، ودربكة ، تثب نحوه القلوب ، وتعلق به الابصار ، حيث جلس خمسة من اخواننا المغربيين بآلاتهم يهزون رؤوسهم ويغنون ، وهزة الرأس أبرز ما يميز الطرب في التخت الشرقي ، ويصوتون معا : بلدي ••• يا بلدي •

ما هذه الاشباح ؟ أهي أخيلة الظلال ؟ أهي الشرق حقا ؟ سراويل وطرابيش وبخور وقهوة وأنوار مخنوقة شاحبة • ووراء كل هذا أحلام ذهبية ، وخرافات وأساطير !••

رأيت الانوثة تحلم في هذا المسرح المعطر بدخان الاحلام • فأين الامير الشرقي يهبط على بساط الريح ينتشل من احدى البقاليات بائعة حلوى ، ويرتفع بها الى أعلى عليين ؟ وبماذا كانت يولاند تفكر بين هؤلاء النسوة ؟ ألا تزال تتمثل كيف تكون صورة حرباء مدهوسة ؟ أوصحيح أنها عجفاء وتافهة مثل هذه الحرباء الكريهة المرسلة عينيها الجاحظتين وهي تموت ! انها صورة بشعة ! ولماذا يسحقها حسن في مهارشته ! لقد كانت تداعبه فلم راح يلسبها بسخرياته لسباً ؟

هز الفتى يولاند من كتفها قائلا : هل أعجبك المقهى ؟ أرجو أن تكون قد خابت أوهامك عن الشرق •

كنا نصيح ونغني مع التخت ونذيع حولنا جوا حارا من العربـدة والصخب ، خلافا لما يستدعيه الجوار حولنا •

فقالت يولاند : ولكن قل لي أعندكم مثـل هذا كله في بلادكم ؟

أهكـذا تغنون وتجلسون ، وتأكلون وتشربون ؟ وهـل كنت تلبس الطربوش سابقا ؟

ـ طبعا ، أرجو أن يكون ذلك من دواعي سرورك •

ـ أوه • لا أدري • ثم قالت : أشعر بصداع •

لم تكن يولاند مرحة ذكية الآن • ان تفاعلا تفسيا يتم في داخلها لن يطلع عليه أحد • ولم أكن آنئذٍ لأهتم بشأنها فأراقب سر تلك النفس الحائرة • فطلب لها حسن قدحا من الشاي والنعناع فحضر بالقدح على الفور غلام عربي فاخر ، يجب أن يكون لي قلم أندريه جيد ، أو كلود فارير لأصوره وأتبسط في وصفه •

جمدت عليه عينا يولانـد ، ورأيت في هاتين العينين جمالا ميتـا يستيقظ ،جمالا كان يحاربه الذكاءكلما أطل•وكان الغلام يبادل يولاند نظرات مغرية فتانة • لقد وقف في مكانه ، بقامة منتصبة ، ذات خصر رقيق ، مضغوط بشـال حريري أزرق ، من تحته سروال من الجوخ الاسود • وكان طربوشه الطويل يميل ميلا واضحا فيتكيء على أذنه اليمنى التي تكاد تداعبها طرة الطربوش • فتى في العشرين ذو سمرة محببة لامعة ، تبعث في المخيلة صورة جني مولع بالعبث والاغراء •

نطق الغلام بفرنسية متقنة وانحنى بأدب جم وهو لا يزال يحدج يولاند • فوضع قدح الشاي على الصحيفة النحاسية وعاد واقفا • جرى كل ذلك بثوان وحسن ينظر ويعجب • ماذا أصاب يولاند ؟ دعاها أن تشرب فلم تسمع • وسرعان ما صاح بالغلام : ألا تنصرف ؟ أشكرك !

فقبضت يولانـد على القدح بجمع كفها كأنها تلذ سريـان حرارة السائل الاحمر في عروقها ، وراحت تحتسي بجرعات هادئات متقطعات ،

مستمرئة لذة المشروب الحار ، فلا يلبث أن يخرج على جبينها قطرات ندى فتذبل عيناها وترتخي خطوط وجهها • وتعود فتشرب من القدح البلوري المخصور بهدوء وتضغط بشدة •

منذ دقائق كان حسن لا يكترث برفيقته ، لاهياً عنها بعربدته ، مدعيا أن ما جرع من الشاي قد أسكره ، فهو نشوان ثمل ، وهو مشتاق الى بلاده يريد أن يغني ويصرخ ، ويفصح عما يجيش بصدره من ألف شعور وشعور • ثم صعقه الجمود وظل يرقب يولاند بطرف عينيه •

هل انتقمت يولاند ؟ وهل استعملت الانثى سلاحها حيث تعجز الثقافة والذكاء ؟ انها ليست حرباء على الاقل • وحسبها من هذه الثورة التي أحدثتها أن شعرت هي بتفوقها •

أما هو ••• حسن ، فهل ارتدت عليه غرائزه البعيدة ، فغار ؟ وعلى من ؟ وأي حق له في هذا الملك المشاع ؟ ومتى أباحت له رفيقته أن يمس بأنمله حريتها ؟ هنا ، أترك فراغا من المجهول ، لا أستطيع أن أملأه بالتأويل والتحليل •

أعتقد أن حسن كان أجبن من أن يعكر صفاء هذه النشوة التي ولدت منذ ثوان في ضمير يولاند • ولكن أهي نظرة عابرة ، تلقيها على عابر ؟ وما سر هذا الاضطراب الذي أربك حركاتها عندما انتصب أمامها هذا الوجه الاسمر النادر ؟ لقد فصدت الغيرة عرقا كبيرا في رجولة حسن فاذا به يتقلص وتسيل قوته مع نزف لا يراه • واذا لم تكن الغيرة ••• فماذا تكون ؟ فاكتفى الشاب أن يلاحظ لرفيقته بأن الغلمان وقحون في هذا المكان • وسرعان ما أجابت بأن أساليب الخدمة والمجاملة ليست قحة !

بعد ربع ساعة خرجنا من حديث ولهو فاذا بيولاند ليست الى جانبنا. فقد توارت من أرجاء القاعة . ليس في ذلــك ما يدعو الى الدهشة . ولكن رفيقنا كان مضطربا . فنهضنا تفتش عنها لانها غريبة عن المكان كما ندعي ، أو أنها في ذمتنا ومسؤوليتنا كما يدعي حسن . فلم تكن ضالتنا في المطعم ولا في الساحة الخارجية ، ولا في الاروقة . فانتشرنا في مطلع الشارع ثم عدنا لنجتمع في الساحة . وقد لاحظ أحدنا همسا في أذن رفيق له : هل تبخرت مع دخان الشاي ! وقال آخر : لعل الاسمر الجميل اختطفها ! وما هي الا نظرات تبادلناها حتى اندفعنا معا نحو المخزن أو السوق التي تباع بها بعض العاديات الشرقية وأمام ركن من أركانها المعتمة ، عقدنا سوارا حول شبح يولاند . لقد كانت هناك .

كانت تنتصب أمامها نرجيلة طويلة ، يتصاعد من رأسهــا المحترق دخان أبيض ، بث في الجو أولى ألغازه العطرية ، وكانت تداعب بيديها نربيجا أصفر ، وعلى شفتيها المعبرتين عن ابتسامة الرضى حلمة النربيج العاجية . واتكأ على سجادة بين يديها ، مغربي ، يحرك أصابعه السمراء في صفيحة من الرمل الاحمر . ولم يكن النــور يصل الى هذا الركن المنزوي الا من خارج زجاج النافذة الاحمر والاخضر ، فبدت يولاند في مسرح عبقري الاخراج .

صاح حسن : يولاند ... ماذا تصنعين ؟

قالت فورا وباسترخاء : أطل على الشرق !

ـــ وما معنى هذا الرمل ؟

ـــ أراقب نجمي .

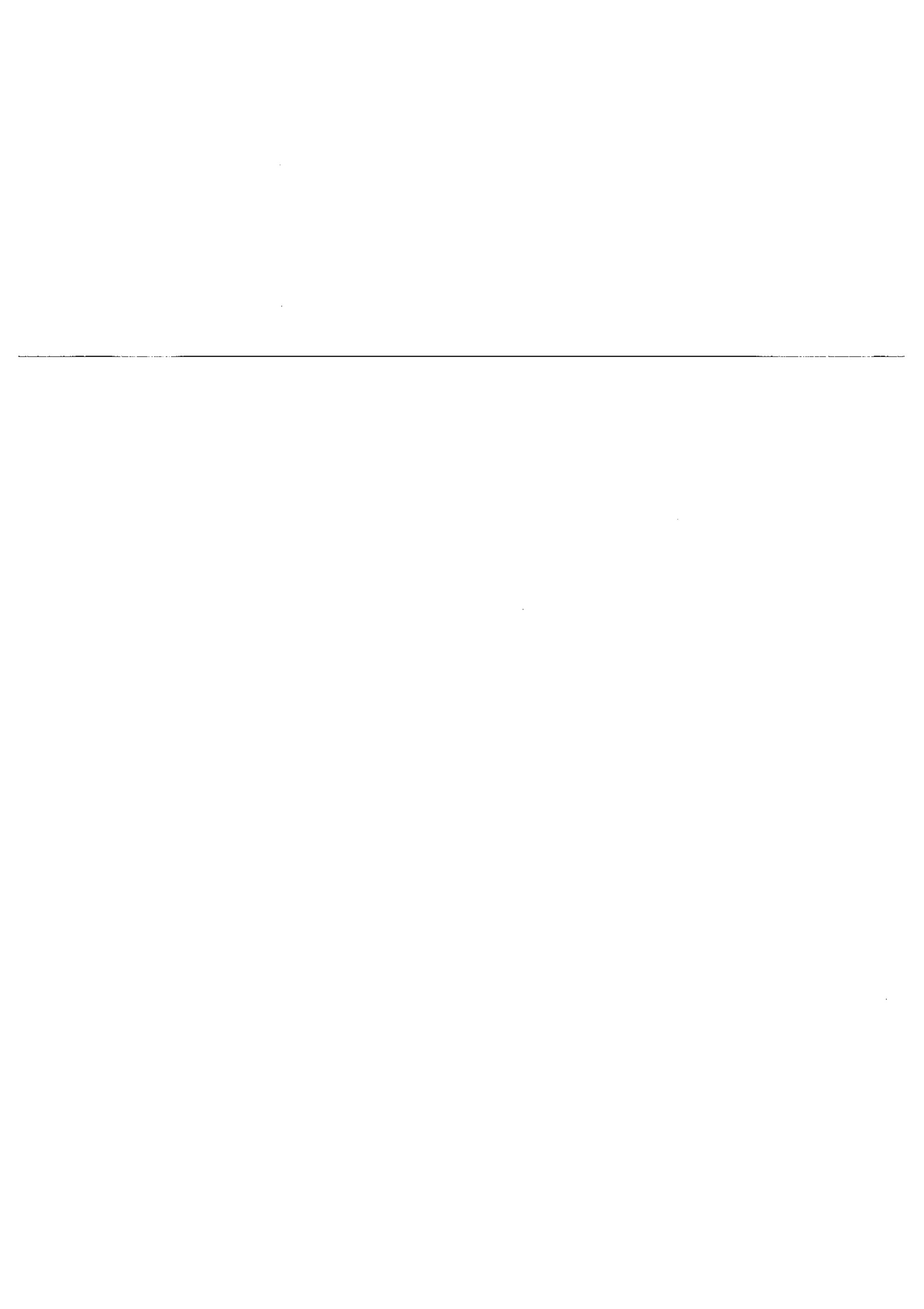
ثم أفهمتنا يولاند باغضاءة ناعسة أنهــا تفضل العزلة فلا تريد أن

تدخل في رؤاها وجوه غريبة ، لاننا نحن أبناء الشرق غرباء في شرقها المسحور ، فانصرفنا • وعندما عدنا لنعقد جلسة حول الصحيفةالنحاسية، أطرق حسن ذاهلا • وكانت هذه الاطراقة العميقة ، المبهمة التي لا أدري حتى الآن كيف اشتركنا بها ولماذا ••• آخر مشهد من القصة والستار ينسدل عليها •

لم نعد نجتمع الا لماما • ثم ان الطريــق التي أوصلتنا الى عاصمة أوروبا أدت بنا بعيدا عنها ، ووزعتنا الشمس ثانية على أطراف الصحراء •

كنت أود أن أعلم كيف جابه حسن مصيره ، وأين هو ؟

★ ★ ★



ربيع يتضور

حكاية نفس

خلعت ثيابي ، وارتميت في البركة الزرقــاء ورحت أخبط بذراعي وقدمي المياه المتلوية المصفقة على جسدي تبادلني دعابة بدعابة ، وبهجة ببهجة . وقبل أن أتتشل نفسي من هذه النعمة المائرة ، نهرتني أمي ، وذكرتني بما أصابني في العام الفائت من مرض رئتي ، وأهابت بي أن اخرج من الماء البارد يا مجنون !

أأنا مجنون حقيقة ؟

كان لا بد لي من الحمام البارد ، كل يوم منذ أسبوع ، فقد هجم الربيع في هذا العام بنوبة حمى عنيفة، ترك الورود نفسها تتلوى وتذوي، وكانت الاجواء تحتبس حول الارض ، حتى ليخيــل اليّ أحيانا أن السماء تكاد تنطبــق على التراب انطباق الكف على الكف ، ثقيلــة لا تتململ .

جلست مساء أمس الى النافذة ، ووضعت كتبي بــين يديّ ورحت أراجع دروس الهندسة ، فلم أستطع متابعة التفكير . قلت : لعل التاريخ أدنى منالا من فهمي المتلبد الثقيل ، فرحت أقلب الصفحات بسلل وفتور.

ثم ما لبثت أن زاغ بصري ، وحسبت أن حملة نابليون على مصر تمشي على جسمي ، وغبار المعارك يدفنني ، فاشتبكت مع جندي في قتال ••• وجرحت وأغمي علي•ولا أدري مــاذا بعد ! اذ ذاك اندفق من نافذتي خطافان من نوع السنونو ، فراحا يهومان في جو الغرفة ، ذهابا وايابا ، وصعودا وهبوطا ، مزغردين فرحين • وعندما أنسا في خشبة ما منزلا رحبا ، جثما متلاصقين ، متوادين ، بعد أن زرقا على الوسادة البيضاء التي كنت أتكيء عليها شيئا أخضر أسود ••• كأنهما في لذتهما الهانئة لا يحفلان بما في سرورهما من ازعاج وقحة واستهتار !

••• مسكين المعلم ، أستاذ الرياضيات ، لقد بدا منذ ثلاثة أيــام مخبولا ، متبرما كأن الوظيفة تجره الى ما هو أقسى من عذاب جهنم • لقد كان يلقي الدروس بجهد واعياء ، كأننا بسكوتنا ، وشخوصنا نحوه، نجرعه الواجب الثقيل جرعــات متوالية ، تغص عليه صدره ، وكأنه محكوم يمثل أمام المحكمة لتجرعه يوما بعد يوم ماء الأعــدام ••• حتى يموت • ما ذنبنــا ؟ انه شاب أيضا في محط الثلاثــين أو الثانية والثلاثين ، فخور بعلمه ، معجب بوقاره الذي لم يكن بالتالي سوى وقار مصطنع ، ما لبث أن خرج عن حدوده وتقاليده منذ أيام ، عندما دخل علينا وقد أناط بعروة سترته كم ورد أحمر ، كأنه قلب صب بكر •••

••• وكم كانت دهشته مربكة له ، مثلما يرتبك أي انسان بسيور حذائه ، عندما يقرر الدرس ، والعيون لا تنظــر في عينيه بل في الكم الاحمر المتهدل بدلال على صدره كأنه رأس فتاة جميل • قال بنبرة غاضبة وقد أخرج من جيبه منديلا أبيض ، حسن الكي ، تضوّع منه عطر فواح : ما بالكم كالبله المصروعين ، تنظرون الى اللوح الاسود

كأنكم ألواح من خشب ؟ ثم تقدم الاستاذ مني ، بعد فترة سكون ـ ولا أعلم لماذا اختارني من دون العشرين من زملائي ـ وأوقفني بحركة من اصبعه المحددة الظفر ، والمصقولة على الطراز الحديث ••• وهتف بي : قل ••• أنت ماذا كنت أقول ؟

فصمتّ ، وصمت الاستاذ معي ، كأنه هو نفسه لا يذكر ما كان يقول • وقفز طالب آخر ، أنقذ موقفي وموقفه معا ، وقد تلألأت في مبسمه ابتسامة هزء خجلى وقال : استاذ ••• والله اننا لا نستطيع أن نعي كل ما يقرر في مثل هذه الأيام الشديدة الحر •

•• وكان كلانا ينظر الى أظافره المصقولة (على غير عادته قبل هذا الاسبوع) •

قال الاستاذ : بالعكس • بالعكس • اجلسا في مكانيكما • تماما بالعكس • ان أيام الربيع تبعث النشاط ، وتوقظ الذكاء ، ولاسيما أن الامتحان على الأبواب !

ثم احمر وجه الاستاذ ، واصفر أنفه في وجهه الأحمر • وكان ذلك دليل اضطرابه وهياجه وكذبه • وكأن خطابه هذا قد كلفه مجهودا داخليا عنيفا ، فأخرج منديله المعطر ، ومسح به ما نزح من جبينه المحموم • ثم أرجع المنديل الى مكانه بعد أن ترك في الجوذيلا من الرائحة ، يكاد يقود الى سر الكم الاحمر الذابل على صدره !

مالي وللاستاذ ؟ لم تبق لي رغبة في الدرس • ان الربيع ثقيل ، حتى أثار خمولي وكسلي وفضول والدي ، فراح يسألني عما اذا كنت أتابع اجتهادي لأنجح هذا العام ، وهو الأخير من أعوام الدراسة الثانوية ، وكان ذلك لأول مرة منذ أودعني مقاعد التدريس • ولا بأس من القول

هنا أن والدي ذو مرح وخفة ، ومزاج ديمقراطي رخو ، في معاملةأولاده الثلاثة الذين استغلوا سعة صدره ، ورحمة ديموقراطيته ، فترك اثنان المدرسة باكرا ، وغدا أحدهما نجارا والثاني خياطا ، ونجوت أنا بأعجوبة حتى الصف الحادي عشر .

اليوم أثرت غضب والدي دون ما قصد مني ، وقلما ثار غضب هذا الشيخ الا عندما يأوي المساء الى البيت فلا يجد أمي بانتظاره .

كان جيراننا يحتفلون بعقد خطبة ابنهم احتفالا صارخا ألقى الحماسة والفرح في قلوب الجميع ، ففتحت النوافذ على النوافذ ، وأطل الجيران على الجيران ، وكانت الزغاريد تشق الفضاء ، وكان نقر الدفوف في الكفوف كنبض القلوب في النحور ، وركضت في السلم حافياً لأطل من النوافذ العليا على الجيران ، أهل صديقي العريس . وعندما دخلت الغرفة مفاجئا شاهدت والدي يعانق زوجته ، أمي ، بحنان شديد ، وسمعته يقول لها :

ـ أتذكرين ياوداد ... يوم خطبتنا ؟ لقد كان يوم ربيع مثل اليوم !

وقبل أن تجيب والدتي ، كنت في الباب جامدا كالصنم ، والزوج الملهوف ، والدي ، يلتهمني بنظرات حمر صاعقات !

غريب ! لا أدري كيف جمدني الخجل ، وهد ركبتي الخوف ، فلم أقو على الحراك . فليست هي المرة الاولى التي أشاهد بها والدي يعانق والدتي ، بل أذكر مثل هذه المشاهد منذ طفولتي الصغيرة ، منذ كنت أنام معهما في غرفة واحدة ! فماذا جرى لي ؟

قال الزوج ، والدي ، غاضبا :

ـ كلب ••• حمار ••• ماذا تفعل هنا ياجحش ؟

ونظرت الي أمي ، زوجته ، نظرة خاطفة ، وقد ازهرت في وجنتيها الذابلتين حمرة باهتة ، وأردف أبي ينهرني :

ـ أين دروسك ؟ أين كتبك ؟ ما بالك تتطلع كالأبلـه ؟ والتفت الى أمي وقـال :

ـ هيا بنا ياوداد ••• سنذهب الى « الربوة » لتناول طعام العشاء•

وعاد الي يقول :

ـ الزم كتابك ، ولا تبرح هـذا المكان •• واعلم أنـه لـم يبق بوسعي أصرف على كتبك ومدرستك •• اذا لم تنجح في هـذا العام فسأركلك بقدمي هذه (وضرب الهواء برجله) وأخرجك من داري •

ونهض مهتاجا • وبعد ربع ساعة غادر البيت مع زوجته •

شعرت بالارتياح والغبطة ، اذ غدوت وحيدا في البيت ، كأن وجود والدي سجن • ولم يكن هذا الأب ذاك الرجل الذي يخنق حرية بنيه ، لقد فهمت سر غضبه • ولكن ما باله يغضب ؟ أكاد لا أفهـم شيئا • آف ••• لقد طاب لي خواء البيت ، وخطر لي أن أصنع كل شيء ، الا الدرس • شعرت انني رب البيت ، السيد السائـد وحـدي • وكان شعوري بهذه الحرية يحفزني الى الاستمتاع ••• نعم الاستمتاع ••• ولكن بماذا ؟

لا شك أنني رب البيت ، وحـدي ! فماذا أصنع في غرفـة خالية وسرير وثـير ؟

لقد كانت روائح الورود تصعد الي من الطابق الأرضي ، فتمـلأ رغبتي نشوة ، وأعصابي اضطرابا • واحتبست الغرفة قبيل الأصيل ،

فضاق صدري ، وغام وجهي بالدم ، وازدادت فيّ حيرة من أعد ليفعل ما يطيب له ، ولا يعلم ماذا يفعل •

ماذا ؟ وجدت على المائدة الصغيرة ، قرب خزانة الثياب ، بين أزرار قميص أبي ، خمس قطـع فضية ، من ذات الخمسة والعشرين قرشا ، فالتهمتها كفي ، وخرجت من البيت مسرعا •

بعد مسير نصف ساعة ، وجدت نفسي في بستان فسيح الجنبات ، ريان الزرع ، طازج الري ، أتنقل بين أشجاره ، وأدوس خضارهوأزهاره مكتسحا بقدمي رؤوس الأعشاب ، وتيجان الورود ، فظاً غليظا ، كأن هذا الجمال بكل مفاتنه ينخس صدري ، ويستفز قباحة ذاتي ، ووحشية طبيعتي • كذلك يفعل بعض الكلاب اذ تتمرغ بين الأعشاب ، فتقصفها في لذة وحشية •

مشيت ••• مشيتدون غاية ولا فكرة ، وكنت أستند بين الفينة والفينة الى جذع شجرة ، وأنظر من تحت الى قبتها الخضراء تتناجى في تلافيفها العصافير ، كأنني هر جائع يكمن في الخفـاء ليقفز علـى أول عصفور مسكين توقعه الصدفة بين مخالبه الحادة •

لم ترم بعض الاشجار بعد قمص زهورها الناعمة علـى السندس المخضل ، فظهرت في منبسط المرج كلـلا بيضاء تدعـو الى الاستفاءة بظلها ، والاغماء بين أنفاسها •

ان أنفاسها حارة ، ويخيل الي أن الجو مخنوق بعبق لهاثها • كانت كؤوس الزهـور متفتحة عطشاً ، تطلب الري ، وتنشد القبل • وكانت النسمات وأسراب النحل تحمل بين الكؤوس رسائل الحب وهمسات الحنين ، وتفرغ في كل زهرة حنينها الى الاخرى ، حتى اذا بلت غلتها وأروت ظمأها ، ابتسمت راضية ، وانحلت لتسقط على الارض • انني

أشاهد أكتم غرام يسري بين قلبين متحابين متباعدين ••• وهذا أيضا شيء يدعو الى غبطتي الوحشية •

أخذت زنبقة فالتهمتها بنهم،واستسغت مرارة رحيقها بشوق• ثم سحقت بين أصابعي تاج زهرة جميلة لا أعرف اسمها ، فتنفستوهي تموت رائحة كريهة • وركضت نحو كلة زهراء تتدلى غصونها مقبّلة الارض ، مهامسة العشب ، فهصرت فروعها وهززت أعوادها ، وامتلأت ثيابي بأوراق الزهور البيضاء ، وعدوت نحو أطراف البستان ، أحمل آثار الجريمة ، كابن آوى هارب من الحظيرة ، وفي فكه المضرج منتوف ريش الدجاج ! ثم هبت نسمة فاترة رطبة ، واحمرت الشمس المنحدرة نحو الأفق ، وقد ثارت في قرصها ، وبوجهي زوبعة من البعوض الصغير •

وبينما كنت أسرح البصر على صفحة النهر المحمرة ، وأنقله نحو الضفة المقابلة ، شهدت في أيكة قريبة شبحا أبيض ، جذبني اليه ، فأقبلت نحوه ، أميزه وأتبصر من أمره • فدلفت نحو الجسر الخشبي ، وسرت على جذوعه المضطربة تحت قدمي وقفزت على الضفة ، ورأيت في الشبح الأبيض امرأة وحيدة • فاندفعت نحو الأيكة اندفاعا لو فطنت اليه لصاحت طالبة النجدة •

ليست امرأة ياربي • انها فتاة •• صغيرة شابة ، أعطيتها من العمر سبعة عشر عاما ، كانت حائرة بين الأشجار ، مضطربة في الظلال التي بدأ يسجيها الغروب في معارج الجنان وتلافيفها • لقد جلست بعد اضطراب باد ، كأنها أنست الى فكرة طارئة وشعور جديد ، وكأن مثواها ببياض ثوبها بين الأشجار المائية مثوى حمامة ضلت طريق الصواحب فباتت في مهابط الغربان عند الغروب •

••• اهدأ ياقلب ! لماذا تضطرب ؟ أأنت على موعد ياقلب •• مع هذه الحمامة الوديعة ؟ أليس جديرا بي أن أسألها عن حالها ، فآخذ بيدها اذا كانت ضالة ، أو أؤنسها اذا كانت مستوحشة ، أو أعزيها اذا كانت يائسة ؟ لقد خطر لي لأول مرة أن أقتحم الحوائل دون امرأة ، فأكلمها مكتسحا أمامي كل حياء وخفر وجبن وتردد ، كما يكتسح الحصاد صفوف السنابل نحوي الصوى المنصوب في غاية الحقل • ولكنني سأتريث ، وسأراقب •

وزحفت متحفزا كأنني سأثب على فريسة ، وهبطت بخفة قرد وراء جدار من العوسج الكثيف ، ووضعت عيني في خصاصه ورحت أتأمل •

لقد كان بيني وبينها نحو ذراعين أو أقل • يالله ! انني أشم رائحة جسمها ، وما تضوع من رائحة عطرها • ولو لم تكن مديرة ظهرها ، لأتصلت بي أنفاسها وألهبت العوسج الأخضر • يمينا ••• انها المرة الاولى التي تدخل بها امرأة تحت قميصي ، ولو كنت أحب دائما أن أتعقب الفتيات ، وأمتع بهن فضولي ، ولا أدري ماذا !••

وقليلا قليلا سمعت أنها تتأوه ، وتمزق بأصابعها وريقات وردة حمراء ، ثم ما لبثت أن رفعت صوتها وقالت :

ـ يا لله لقد تأخر !

ولبثت ريثا في جلستها ثم قفزت فجأة وخطت بضع خطوات الى الأمام فأزاحت بعض الأغصان الحاجزة وصرخت طروبا :

ـ الي !•• الي !•• وتنفست مستريحة • وكان شاب في مستهل ربيعه ، مثلي في مثل عمري ، في العشرين أو أكثر بقليل ، يحمل كتبه تحت ابطه ، ويتقدم راكضا قافزا • ولعله لمح الشبح الابيض•وتراجعت

الفتاة ، فرأيت وجهها ، رأيته ، وشهدت معركة اندحار اليأس في عينيها السوداوين ، وما لبثت أن ارتمت على الارض مستلقية علـى ظهرها ، مستسلمة للنصر والحلم والنشوة والرجاء • وكان قلبها يهـز نحرهـا فأرى رقيق ثوبها فوق نهديهـا • وكان شعرهـا المنثور يقبل العشب ، ويبارك الارض ، وأما عيناها فكانتا تبتسمان للسماء ابتسامة هي كل عزاء الملائكة في عزلتهم البعيدة ، وأروع صلاة يتقبلونها بشكر •

واحسرتاه ! تواريت عن هذه الجنة وخرجت من البساتين مهرولا كأن ورائي عصا الحراس تقرع الأرض وتدمي عقبي • وعندما احتوتني المدينة ثانية ، وكـان المساء بسط رواقـه ، ركبتني وحشة ، وأنكرت نفسي ، وأنكرت الناس • فماذا أفعل ، وأين أذهب ؟

عدت الى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل • فويل لي ، كيف أقابل أبي ، وماذا أقول له ؟

نقرت الباب الخارجي ، نقرا خفيفا ، وسرعان ما فتح لي ، وظهرت وراءه أمي • لقد كانت تنتظرني لتفتح لي ، وتكتم أمر غيابي • فسهرت الليل في الدهليز ، حتى لا أوقظ النائم بقرع الباب •

خاطبتني مشفقة عاتبة :

ـ أين كنت ياصباح ؟

ـ لا أدري •

ـ كيف لا تدري ؟ أفي مثل هـذه الساعة من الليل يعود أبنـاء المدارس الى بيوتهم ؟

ـ أين أبي ؟

ـ نائـم •

ـ هل انتظرني ؟
ـ لا ••• لقد كان تعبا •
كنت مضطربا ، خافق القلب ، فوضعت أمي يدها الرقيقة على كتفي، وأدخلتني غرفة الدار، وكانت تمشي مثلي على أطراف أصابعها ، وقالت:
ـ أين كنت ياصباح ؟ لماذا هذا الشحوب ؟
ـ شحوب ؟ لا أدري !
ـ ماذا عراك ؟ هل أنت مريض ؟
ثم جذبتني نحوها بلهفة ، ووضعت يدها على كتفي ، وصوبت عينيها الى عيني ، وقالت :
ـ هل أخذت قطع النقود التي كانت على مائدة الخزانة ؟
فأطرقت برأسي وقد صعقني خجلي •
قالت وقد أجلستني الى جانبها في المقعد الطويل :
ـ صباح ! أنظر الي جيداً• ماذا فعلت بها •• كل قطع النقود هذه ؟
لقد كانت نظرتها قوية بكل ما فيها من حنان ولهفة وخوف ، حتى خلت أنها قبضت على عنق ضميري ، ودخلت حجرة سري •••
ـ أجب ياصباح ••• ياولدي !
فهوى رأسي على صدرها ، وكومت نفسي لأخفي وجهي في حضنها وكدت أبكي ، وأجهش وأصرخ • غير أنني شعرت بيدها تربت على ظهري ، وبفمها يطبق على أذني هامسة :
ـ خبيث •• خبيث •• مجنون ••
ونمت تلك الليلة وكأنني لم أنم منذ عشرين عاما •

★ ★ ★

قبل المدفع

قصة دمشقية

دنت الساعة !

وخارت القوى .

كذلك تخذل الحبيب ركبتاه قبل أن يلقى الحبيب .

اكفهرت الوجوه ، ولصقت الألسن ، وخطّت العيون خطوطاً اثمدية زرقاء ، أطلت من على جوانبها الأحداق معذبة طائشة حيرى .

دنت الساعة ولا تزال تدنو .

انها تطل من مغرب الشمس ، محملة وعوداً ونداء جميلا .

وكأن الشمس بصفرتها الفاترة ، قد أمضها الجوع ، وأشقاها المسير على الطوى .

تحركي ... تحركي ... عقارب الساعات ، حيث يدوي المدفع ، وتنطلق المآذن بأصوات البشري .

لقد نشطت القوى ثانية لأن الدقائق الأخيرة تكاد تشبه مدخل دمشق من على ضفة بردى ، بعد مراحل الصحراء الجرداء .

وهاهي ابتسامة الرضى والانتظار المطمئن ترين على الوجوه الصامتة .

وتتحدث العيون بنعمة السعادة التي دفع ثمنها غاليا •

فتحت المقاهي حلوقها العميقة المعتمة تنادي المارة : أهلا وسهلا •

وأذاع « السماور » العظيم ، المتربع على دست من الفحم الاحمر، رائحة منعشة دافئة ، وعما قريب سيحيط به سماره يحدثونه أحاديث رمضــان •

لقد ضمخت الدنيا نسائم الطبيخ ، والشمس تنحدر انزلاقا نحو المغــارة •

ولـكن المدفع لم يدو بعد ، والمؤذن لـم يعلن بتسبيحته الداويـة المكبرة حلول الأجل •

الناس يمشون ، يمشون أسرابـا أسرابـا ، صعودا في الشــارع وهبوطا ، ويعلقون بحافلات الترام كما تعلق الذرات بابرة ممغنطة • وكان قاطع التذاكر يتجول بين الركاب وقد زهقت روحه • فيروح لاعناً شاتما • ان قاطع التذاكر آخر من يفطر بعد أن يبذر آخر ركابه كـلا أمام بيته ، وتنتهي آخر شحنة من المتأخـرين • وهاهو رغيفه في جيبه مزنوق كروحه وصبره •

ومشى حميدان الصياد ، بين الناس ، ومع الناس ، كأنه أحدهـم وكأنه بانتظار ما ينتظرون •

كان يمشي على ضفة بردى متمهلا ، كأنه مثقل بأقطار دسم فراح يتنزه • حميدان لا يملك مالا سبحان المعطي ، ولا رزقا سبحان الرزاق• صياد سمك لم يصد البارحة ولا قبلهـا صيدا • فقد ورمت ركبته ، وفاح كعبه اثر جرح ، ولو غامر في الماء لتلف • صياد سمك رأس ماله قصبة وشص وشبكة مهترئة ورجـلان كجذع شجرة ، طالمـا خوض بهما وغامـر •

يارب ••• ياستار يارب !

كان يرفع صوته بين الآونة والأخرى بهـذا النداء ، ويمشي ••• وينتظر ساعة الافطار ، وتعلق عيناه بتاج المأذنـة ويشعر كسواه بدنو ساعة الأجل • ولوجـه حميدان شارات خاصة في التعبير عن الشوق والوله : لقد اتسعت فوهتا منخريه ونفر عرقان أزرقـان على جانبي جبينه الاسمر المقشور •

جرة الفول متكئة على قاعدتها باعتزاز وفوهتها مصوبة نحو داخل الدكـان كفوهة مدفع الافطـار ، ومن فوقها مصباح كهربائي يسطع كالبشرى أو كنداء المؤذن : هلمـوا !•• والتف منذ ربع ساعـة بعض اولئك الذين لا يحملون الساعة ، حول الجرة وتحت المصباح ، لقمـة باليمين ورغيف باليسار وحولهم في كـل مكان على الجـدران صور مبرقشة ملونة ، صور عنترة ، وأبي زيـد الهلالي ، والسلطان رشاد ، وحرب المضايق التركية ، صور الفوال وأولاده وآبائـه وأجـداده ، لوحات كوفية ، وعقود خرزية ، وكفوف ورقية وصور •• وصور • وكأن كل من في الدكان من أشباح وأرواح وأشخاص عاشوا ويعيشون بانتظار دقيقة الافطار ، دقيقة تنطق جرة الفول ، ويسكت كـل هـذا الكون المسحور !•

وأما الشارع فقد اشتدت حركته وطغى ازدحامه • كان الناس في ذهاب واياب كأنهم أشباح يدخل بعضهم في بعض ويخرجون • المدينة توزع أبناءها على مقاعدهم كأنها مدرسة ذات نظام، والجميع سيكونون على موائدهم قبل المدفع أو بعده بدقيقة أو دقيقتين • ان ساعة الافطار هي روح هذا النظام السائد والهدوء الشامل ، والسير العاقل •

ما أبدع هـذا الاخراج المسرحي في دكان الحلوى • لقد كانت المصابيح المبكرة تشع فوق أطباق الحلوى فكان كل طبق وجهاً باسماً بالسعادة ، طافحا بالبشر ، مغريا بمفاتن العيش ، كأنه يقـول للصائم الصابر : أنا لك ! ووقف حميدان يتأمل •

لقد اندفع حميدان مع المندفعين ، واذا به يصل الى ساحة المرجة فجأة • فكأن الغريزة لا تعرف سوى هذه الساحة مكانا للافطار ، لمن ليس له بيت ومائدة • فأدخل يديه في جيبي سرواله وأسند ظهره الى عمود الساعة وثبت في مكانه • وكانت الساعة توزع الناس الى جميع الجهات كشرطي مرور لبق ، أو كزعيم جوقة موسيقية حاذق • وكان كل من مر ينظر الى وجه الساعة • ونظر حميدان كما ينظرون كأن له علماً بأحوال الزمن في وجوه الساعات ، وهز رأسه وعض لسانه وابتلع ريقه ، وتساءل لأول مرة في هذا الغروب المبارك : ماذا آكل ؟ وأي شيء آكل ؟ وبم أشتري لآكل ؟

ولكن للساعة المقتربة في قلوب الناس سحراً انتقل منها الى قلبه ، واذا به كالناس لا ينتظر الا اشتعال رأس المأذنة وطلقة المدفع ، كسواه من الناس ، كالملايين من الصائمين • ومثلهم راح يندفع وراء خيـال مائدته • وطغى عليه هذا الشعور الكريم وجالت في عينيه رقانة من ماء النعمة والشوق والشكر •

وكان الناس يشترون من الحلوى ، ويمرون ، ويقفون ثم يمرون • وكان المسرح الجميل يحرسه على الرصيف غلامان بقميصين أبيضين كأنهما حارسا باب الخلد • وأما صاحب الدكان فكان وجهاً هزيـلا وشارباً أسود مسترخياً ، وقامة محدودبة ، وبشرة كلون قشر الرمان ،

وبالجملة فقد كانت تبدو عليه جميع أعراض التخمة والفرحة المعدية ، من فرط التأمل بشره في أطباق الحلوى لا من فرط الاكل • وكانت نظرات حميدان تصعد وتهبط بين وجوه أطباق الحلوى ووجه صاحب الدكان ، نظرات جوفاء تعبر عنها شفة متدلية زرقاء فيها شق نزا عليه ريقه منذ حين •

الناس يشترون ويمرون ، ويمرون دائما • ثم تفرج الازدحام وهدأت اللاغبة وهبطت مغالق الحوانيت وكادت تقفر أسواق التجارة والعمل وانسحب النهار من الأزقة الصغيرة والاحياء المتراكمة وهبط نصف الشمس وراء الجبل بينما ظل النصف الثاني يرسل أشعة لا تكاد تصل ، فحث القرويون حميرهم المحملة بمآكل رمضان وهدايا العيد وساروا في خاررج المدينة قوافل قوافل يهزجون ويغنون ويمنون النفس بأطايب الطعام في هذا الغروب الجميل ، على شرط أن يسبقوا المدفع الى مشارف القرية • ها هي القرية تستعد لفتح السوق حيث يفرغ الفلاحون محمولاتهم ، فيقبلون يشترون ويتقايضون • ان في السوق رائحة دمشق ولكن الجو محمل أبدا بروائح التراب والسماء وأنفاس الريف • في هذه القرية لا يوجد مخلوق مثل حميدان لا يعرف كيف يأكل • فالحياة تجري على سجيتها في عروق الريف الطيب • وقد لا تجري الحياة في المدينة الا في أقنية لا يشرب منها الا من يشتري ويدفع ••• فالمدينة تبيع كل شيء حتى الضمير وقشر البصل !

تناول حميدان طعام افطاره أمس وراء دكة الفوال رغيفا وصحن فول مسلوق وكوباً من مائه المملح • ولقد قبضت امعاؤه على هذا الغذاء رافضة أن تتنازل عنه ، فشعر الآن كأن الفول قد يبس مع امعائه•

وبدأ الجوع يصرخ في أحشائه كحيوان كلب مقيد بالسلاسل • فسالت دموعه دون أن يكون متألماً أو شاعرا بحاجة الى البكاء ، فقد حاول اليوم أن يعيد الاكلة نفسها وراء الدكة الحمراء ذات الصحون البيضاء فخطر له أن يسأل البائع وقعة بالدين فور انطلاق المدفع ، ولكنه سارع فسأل ، فأجاب البائع : من أنت ••• لا أعرفك ! قال حميدان : أنا صياد السمك! فضحك البائع وقال : مرحباً ••• سمك ! وهز رأسه نفياً •

ما أسعدها ليلة منذ ثلاثة أيام عندما أفطر في أحد البساتين مع أحد أصدقائه من بقايا مائدة كبيرة أقامها أحد الافندية لأربعين طاعماً لمناسبة رمضان !

أسند الصياد ظهره على جدار في زقاق يعج برائحة الشواء وراح يجتر تلك الذكرى القريبة • لقد أكل حتى الانتفاخ لحما وأرزا ودجاجا وحلوى وفواكه حتى انه ليتمنى على الله لو أهلكه في تلك الليلة وهو مستلق تحت شجرة الجوز لا يطيق حراكا •

قال له صاحب البستان : لقد كلفت الوليمة خمسمائة ورقة سورية ! فراح حميدان يضبط حساب الوليمة بميزان حياته • انه ماهر في الارقام ولو كان مظهره لا يوحي شيئا من المهارة • ان الورقة السورية تكفيه افطار أسبوع كامل ، فأربع ورقات تكفيه لافطار أيام رمضان كلها • وقد تكفي الخمسمائة ورقة لافطار مئة وخمسين فقيرا فاذا استغنى الاغنياء عن خمس ولائم لا يكاد يبقى في دمشق فقير بلا أكل في رمضان• فهز حميدان رأسه عجبا ولم يكن قبل اليوم ليعجب • ثم طافت على وجهه ابتسامة باهتة فكان ذلك دليلا على أنه قلب صفحة على حساب الاغنياء ، وطفق يفكر بشيء آخر ، ماذا يهمه أن تكفي وليمة أحد

الاغنياء لافطار مئتي فقير ؟ ألم يقسم الله للناس أرزاقهم ؟ وفيم التدخل بشؤون المنعم الخلاق ؟

ومر ولد يحمل طبقا كبيرا ، انخلعت له عنقه ، ففغر حميدان فمه ولبث يلتهم بعينيه هذه الاوراق الحمراء المتفشي فيها السمن . وعندما مر الولد ترك وراءه رائحة دسمة تحلب لها فمه فحاول أن يبتلع ريقه فلم يستطع ، واندفع خيطان لزجان على فمه المشتور بادر الى مسحهما بكمه ومضى ... يمشي .

وكاد حميدان ينسى موعد الافطار ، في دوار من اليأس والخور لو لم ينطلق المدفع فجأة ، فهب له مذعورا كأنه انطلق في أذنيه . وكان أول ما وقع عليه بصره المذهول تاج المأذنة المضيء ، وشبح المؤذن في عتمة المساء . ثم دوت صيحة الأذان وتواترت التكبيرات من كل صوب ، واذا بالشارع يقفر ، والعتمة تسود ، ودمشق مقبلة معاً آكلة ... كأن أهليها ضيوف مائدة واحدة في حفلة واحدة .

لفظ المؤذن آخر كلماته وأدخل رغيفه في حلقه ثم هبط درج المأذنة. ها هو الفوال يأكل باليسرى ويدق الحمص باليمنى ، ووقف صاحب المطعم أمام الباب يصفق بكفيه داعيا الغرباء الى الاكل كأنه يقول لهم : انني أضحي في سبيلكم فلن آكل حتى تشبعوا !.. وكأن أول ما فكر به المدخن أن أخرج لفافته وراح يدخنها بنهم ، وعثر غلام بماعون « التسقية » فتحطم وسال المرق الابيض فراح يبكي ويعول ، لأن أباه وأمه واخوته الاربعة ينتظرونه منذ خمس دقائق وقد انداحوا حلقة على أرض الغرفة ، فاذا دخل عليهم بلا تسقية ، قتلوه نحراً بالملاعق ، فأطلق ساقيه للريح . الناس يمرون بالناس بلا سلام ولا كلام ، فبعضهم

مسرع ، وآخرون يأكلون وهم يشنون • ويكاد المنصت يسمع صوت المضغ ، وجعجعة الملاعق في الصحون •

شد الصياد حزامه الجلدي على بطنه واندفع الى الامام فخيل اليه أنه مصطدم بأول عمود فيقع مغشياً عليه ، ثم وثبت معدته الى نحره وضربت امعاؤه قفص صدره ، وقد كان قلبه يخفق بعنف كأن الموعد قد حان ليطالب بحقه على الجسد •

وحسب أنه نجا عندما وقعت عينه على سليمان أفندي أحد زبائنه فقال له دون تردد : مرحبا سليمان أفندي ! أتأمرون أن أجلب لكم غدا سمكا نهريا طازجا ؟ قال الافندي وهو ينتظر الترام ليقفز اليه : لم نعد نأكل سمكا نهريا •

لم يبق على الرصيف الايمن سواه ، وكان شيخ عجوز يتوكأ على عصاه يقابله في الرصيف الايسر • وعندما اقتربت الحافلة قفز اليها الافندي • أما الشيخ فلم يدركها بعد أن حاول اجتياز الشارع ، فسعل ونفخ ثم عاد يتمتم تمتمة خفية ، وهو يحمل صرة زرقاء لعلها كانت تثقل ساعده الهزيل •

يا رب يا ستار يا حليم يا كريم !

ولأول مرة رفع حميدان رأسه الى السماء ونظر في تيهها الازرق لا شكر فيها ولا حمد •

ولكن لسانه لم ينطق نظره الا بالشكر والحمد عندما غض بصره ثانية :

ــ أستغفر الله يا ربي !

انقطع سبيل السابلة ، وران على الشوارع سكون ثقيل ، وقدمت

المدينة للغريب الهابط اليها في مثل هذه الساعة ، صورة مدينة هجرها السكان ، وقد يظهر شبح في البعيد ثم يتوارى ، وقد تمر سيارة مسرعة فلا تلبث أن تترك وراء هديرها خواء موحشاً .

... وما فتىء العجوز يتقدم ببطء حاملا صرته الزرقاء متمتماً ، وما زال حميدان يمشي على الرصيف المقابل ، وكان يشعر بثقل ذراعيه اللتين يطوح بهما الى الامام والى الوراء ، وقد جف حلقه ، وتداعت ركبتاه ، وأخذ به دوار الجوع ، وأحس بدموعه تنصرف عن عينيه لتنسكب في حلقه فتكاد تخنقه .

لماذا لا يستجدي ويقرع الابواب ؟ لا أحد يمنع الصدقة عن السائل المحروم عشيات الصيام !

بل لماذا لا يدخل دكان الحلوى فيأكل ما شاء بطنه أن يسع ثم يعلن فراغ جيبه ويسلم نفسه للشرطة ويأكل غدا على حساب الحكومة ؟

لولا حنينه الى أمسيات الصيد الرائعة عندما يلقي الشبكة وينتظرها لتمتلىء ثم يحملها الى المدينة ثم يعود صباحا ومساء وهكذا منذ عشرين عاما ، لولا حنينه ، لولا هذا الهوس ... لولا هذه « السوسة » كما يقول التي تنخر في قلبه ، وتملك عليه هواه ، فما كان أسهل عليه أن ينال افطاره في هذه الامسية . وأحس ثانية أن دموعه تنصب في حلقه فيختنق بها .

لقد سبقه العجوز وما يزال يمشي ببطء وتمهل كأنه لا يستعجل الافطار ، ويستمرىء لذة الانتظار ، ويزيد بها نفسه الجائعة متعة . ما يهم ؟ ما دامت الفريسة في جعبته والزاد في صرته ! ان في حرمان النفس عندما تملك زادها بين يديها ، لشعورا قد يقوم بنفسه مقام المتعة .

وفجأة عثر العجوز ، فكبا منبسطاً على وجهه ، فسقطت عصاه بعيدا عنه ، وتناثر ما في الصرة ذات اليمين وذات الشمـــال ، فهرع حميدان نحوه ، وقد أخذت منه الشفقة على الشيخ العاجز ، ونسي همه وألم حرمانه • على أنه ما كاد يقترب من العجوز ، فـيرى الخبز والجبن والخيار ، حتى جمد في مكانه ولبث يفكر ، بينما كان العجوز يعتمد على يديه لينهض •

ماذا ؟

وتطلع الصياد الى الوراء ثم الى اليمين والى اليسار ، كأنه يتأهب لجمع خيوط الشبكة ، عندما يحس بامتلائها • وبرق في عينيه نــور مخنوق ، ثم تشنجت عضلات فكيه ، وبرز عرقا عنقه وصدغيه ، وتهدلت شفته المشقوقة وتحركت يداه المشلولتان فاختطف رغيفين وقرص جبن وثلاث خيارات وانطلق يعــدو في الزقاق الخارج من الشارع نحــو البساتين في ضاحية المدينة •

••• وهناك على بساط العشب الاخضر أمام منصعة يلقي فيهاالناس الاوساخ جلس حميدان القرفصاء بعد أن أمن عادية الطوارىء ، وأخذ يأكل بهدوء وسكون افطاره اللذيذ •

في الناحية الثانية من المزبلة كان كلب أســود يعرق بعض العظام وإزاءه وقفت هرة مقوسة الظهر ، منفوشة الشعر تنفخ بوجهه نفخات مهددات ، وترسل في سكون الليل مواء حاداً •



العانس

قصة امرأة فقط

رسمت « نور » على وجهها وصدرها شارة الصليب ثلاث مرات بورع وذهول ، كما اعتادت أن تفعل دائما منذ طفولتها اليانعة ، البعيدة البعيدة، ثم عقدت كفيها وأراحت عليهما ذقنها خاشعة مطرقة، واستغرقت في صلاة وادعة بضع دقائق طويلة .

لم يكن ينير سريرها سوى ضوء خافت ينبعث من كأس مملوءة زيتاً ، فيها عوامة بفتيل شمعة يحترق ، ويبعث هذا اللهب الاحمر الرجراج ، الذي يكاد يكشف للعين ما حوله : ثلاث صور مقدسة ، تتوسطها ايقونة العذراء بحجم الكف أو أكبر ، وكانت الصورة الى اليمين تمثل يسوع المصلوب ، تنزف من جنبه دفقة دم ، والنسوة تحت صليبه يبكين ويقرعن الصدور . وأما الثالثة الى اليسار ، فكان يحجبها ستار من العتمة المذهبة .

ـ كم أنت جميلة يا نور ! في الليل ... وتحت هذا الضوء الاحمر الباهت ! أكاد أرى في عينيك شبها بعيني العذراء .

واستمرت نور تصلي . فهي وان دخل عليها هذا الصوت الخافت

المنبعث من زاوية الغرفة كقصفة رعد ، فلم تشأ الا أن تتم صلاتها ، بلا التفاتة • وعاد الصوت يموج السكون الثقيل •

ــ ألا تتكلمين يا أختاه ؟ ولماذا تجمدين هكذا ؟

ثم انطلقت ضحكة طفلة حلوة كأنها زقزقة كمان تحت دغدغة قوس سحري • وكانت نور تختم صلاتها برسم شارة الصليب ثلاث مرات ، فالتفتت نحو السرير المحاذي لسريرها في زاوية الغرفة وقالت بدون تذمر :

ــ لماذا لا تنامين يا عفيفة ؟ وما معنى هذه الملاحظات الباردة ؟ نامي يا حبيبتي نامي • ثم لماذا تتركين الضوء مفتوحا ؟

وبعد ثانية صمت : هل صليت صلاة النوم ورسمت شارة الصليب ؟

وانطلق الصوت العذب ثانية من الزاوية التي ينيرها ضوء كهربائي أزرق أدكن : أوه ••• صليب نعم يا أختي ورسمت شارة الصليب • ولكنني لست مثلك • انك تصلين كأنك نائمة أو منومة • قولي هل رأيت فيلم « الحلم » لأميل زولا في السينما ؟ انك تشبهين بطلة الرواية •

ــ أنت مزعجة يا عفة • أتريدين أن أشكوك الى الماما ؟ ثم كيف ذهبت الى السينما ومتى ؟ لو تدري أمك !•• وما معنى هذه الوقاحة ؟ كيف تقولين لي انك في السينما ؟

ــ أوه ••• كيف كنت ؟ لا تسَلي • لا تكوني ظالمة مثل الماما • لقد أعطتنا الرئيسة فرصة بعد الظهر لمناسبة عيدها فقضيت الوقت مع انطوانيت في السينما • ثم ••• ليست هي المرة الاولى •

ـ عفة ، ماذا تقولين ؟ أفي مثل سنك تذهب الفتيات الى السينما ؟ وسرقة ؟ ومع انطوانيت الفتاة الطائشة ؟

وساد سكون ثم انتفض صوت الطفل وفيه نبرات نفس تنضج .
ـ آه ... للمرة الاولى أراك تصلين بمثل هذا الذهول العجيب .
انني أراك في قميصك الابيض تحت هذا الضوء كقديسة من القديسات .
أود أن أعانقك .

ـ أطفئي النور يا عزيزتي . نامي يا عفة نامي .
ـ كلير ... أختي . أريد أن أقول لك شيئا .
ـ لو سمعتك أمك تنادينني كلير ... لقطعت لسانك . وليس الآن وقت الكلام . ارسمي الصليب ونامي .

وأز السرير أزيزا مسموعا وراح جسم الفتاة يخفق فيه ويتململ . وعاد صوت الاخت الكبرى يقول :
ـ أسمعُ وقعَ أقدام أمك . نامي .

اذ ذاك فتح الباب ودخل شبح الام في ظلام الغرفة المنورة بضوء الكأس الزيتية مقابل السرير . وكان منظر الام يذكر بمديرة ظالمة في مدرسة داخلية . قالت وهي تقف فوق سرير الصغيرة :

ـ أسمع صوت التخت يتحرك . من يبقى مستيقظا في مثل هذه الساعة ؟

ثم مشت نحو رأس السرير الصغير ورفعت صوتها بشيء من الحدة : أنت ؟.. أنت يا عفيفة تنامين وتتركين ساقك وفخذك خارج اللحاف . تأخذين البرد ونحن ندفع للطبيب ونسهر الليالي ونبكي بالدموع . قلت

لك ألف مرة عندما تنامين لا تتركي ساقك الملعونة خارج اللحاف كحية خارجة من قميصها .

ثم ازدادت الام عنفا وصاحت : ساقك هذه اكسريها ... أدخليها تحت اللحاف ... ألا تخجلين ؟ غرفة مملوءة بصور القديسين !..

وقرصت الساق البضة الخارجة تعانق اللحاف وأدخلتها بعنف وهي تكرر : اكسريها ، هذه الساق ...

وصاحت الابنة : أخ ... وتململت في الفراش وظلت متناومة .

عندما خرجت الام وأحكمت اغلاق الباب وراءها انتفضت الابنة في السرير واستوت قاعدة وراحت تنادي أختها همساً .

ـ كلير ... كلير ... نور ... هل تنامين ؟

فأتى صوت من السرير المقابل : اش ... اش ش ش ...

ـ نور ألا ترين ؟ لقد قرصتني قرصة أودعتها كل ما فيها من عزم وسم . انني لا أحبها ، لا أحبها . انها جاسوسة وليست أماً .

ونهضت الاخت الكبرى في سريرها وقالت :

ـ ما بك الليلة يا عفيفة ؟ أنت مجنونة . لقد أزعجتني وطيرت النوم من رأسي . اف ...

ـ مجنونة نعم ... انك تكرهين الماما كما أكرهها أنا . ولكنك صبورة ... صبورة ولا صبر أيوب . ولا صبر الجمل .

ـ ثرثارة ، كفاك كلاما .

لقد أرادت الاخت الكبرى أن تستدرك بآخر ما تبقى لها من هيبة ووقار ، فخانتها قواها وأدركت أن هذه الثورة الحلوة التي ترفص في نشوتها عفيفة المرحة ، الوقحة ، بدأت تفعل فعلها في نفسها هي أيضا .

ـ أنا أعلم كم تعانين من غطرسة أمي وشراستها . أنا أعلم كم تتألمين اذ تقضين نصف نهارك في المطبخ والنصف الآخر وراء آلة الخياطة ! أنا أعرف كيف رفضت الماما قديما أن تقص لك شعرك فتركت هاتين الجديلتين تسرحان فوق ظهرك كذنبي فرس ! هه ! أما أنا فقد أجبرتها المعلمة على قص شعري ، كما تعلمين .

ـ كفى هذراً أقول لك يا ابليسة .

ـ ... وأنا أرى كل يوم صدارك المرقع ... هذه القطعة من القماش الازرق السميك . ان البابا ليس فقيرا ، أليس هكذا ؟ ثيابك ، ثيابك كلها من الداخل ـ خام بخام ـ تلبسها الخادم ، لو كان عندنا خادم . ثم أنا أدري لماذا لم تتزوجي ...

وكانت هذه الصفعة قوية . فمادت لها الاخت الكبرى . ولكنها تجالدت وقد جرحت كبرياؤها فخبطت بكفها على حافة السرير وقالت متوعدة :

ـ اخرسي والا قمت فنهشتك بأسناني يا قليلة الادب ...

ـ نور ؟... أنت صخرة ، أنت حجر . أنا أعلم أنك ضربتني عدة مرات بوحي أمي وأنك صرت مثلها على طول الايام قاسية شرسة .

ـ لا يعنيك أمر زواجي . أنت طفلة ولا تفهمين ...

ـ لا ، لست طفلة ، مع هذه الليلة سأتم السادسة عشرة . الليلة ليلة ميلادي وغدا عيدي . لا يفطن بي أحد . لا كلمة حلوة ولا هدية ولا سهرة ، أترك عاما مضى فلا يودعني أحد ، وأدخل عاما جديدا فلا يستقبلني أحد ، أنا مقطوعة غريبة ، أنام مبكرة مع الدجاج ، وأعيش كما يقولون بين عقربي الساعة ...

كانت الاخت الكبرى تبكي آنئذ ، وكانت تحجب وجهها عن الضوء فلا ترى أختها سوى شبح رأسها الاسود .

ـ ألا تتكلمين كلمة واحدة ؟

وأصلحت الاخت الكبرى ما استطاعت من نفسها المهدمة الحزينة ومسحت بكفها عينيها لتدير نحو الصغيرة وجها باردا كالجليد جامدا كالحجر وقالت : نامي الليلة ، وسأكلمك غدا ، غدا عندما تذهب أمك لصلاة الصباح ... قالت هذا وعضت على شفتيها قابضة بأسنان حادة على ألم يكاد يخرج عويلا ودماً على وجهها الذابل الممرغ بالشقاء .

لقد استفاق الألم المسجـون بأثواب العفة في قمقم هـذا الجسد الصدىء . استفاق بعد هجعة طولها في الزمان خمسة وثلاثون عاما ، تحت هذا الصليب المشبوحة عليه أعضاء ابن الانسان . حقا لقد استفاق الالم ، ومتى ؟ فويل لها !

ـ كنت أريد أن أكلمك في عيد ميلادي غدا ، ولكن ما الفائدة ؟

وظلت الأخت الكبرى صامتة تعض على ألمها ، وأي ألم ، هذا المارد المضغوط في قمقم الجسد الصدىء ! ها هو يستفيق فتتمزق له أوصال الحديد ويطل من عينين وشفتين أطبقتا منذ الأزل . ولم تستطع الاخت أن تكبح اعصار اجهاشة تهدد صدرها . فارتمت على الوسادة وكتمت فضيحة نفسها باللحاف وكانت تلهث كمحمومة هامسة في سرها : الهي ... الهي لماذا تركتني ؟

ـ ما الفائدة أن أكلمك في عيدي غدا ، فقد لا يكون لي غد ، نعم كنت أريد أن أقول لك منذ أسبوع ، سأقتل نفسي .

... وكادت نور آنئذ تثب من فراشهـا مذعورة ، ولكنها ظلت

ضاغطة على عنقها بيديها ، دافنة اضطرابها ، متناومة ، وقد بدأت تطلع على هول السر ، ذاك السر الذي يصرخ عاليا من الزاوية المقابلة في السرير الثاني •

ـ أتنامين ؟ سأقتل نفسي ، طبعا أنت لا يهمك أن أقتل نفسي • يا للقلب الأصم ! سأقتل نفسي • ولخير لي أن أموت في النهر غرقا مثلا من أن أموت مثلك في المطبخ وبين رقع الخام الغليظ •

وأرهفت الاخت الكبرى أذنيها لتتلقى النبأ الذي تتوقعه ، وصرخت الاخت الصغرى :

ـ أُحب ••• أحب ، انني أحب ، هل سمعت الآن ؟ فاذا لم أعانق هذا الحب بكل مافيَّ من قوة ••• لا أعيش ، ولا أرغب في العيش ، سأقتل نفسي أو أهرب معه ، ألا تسمعين ؟

وعندما لم تسمع جوابا قفزت من سريرها وراحت ترتمي على أختها وتهز كتفيها مرددة :

ـ أنت لا تنامين ، أنت متناومة ••• كلميني ، قولي •

قالت الاخت الكبرى همساً وقد تلاشت قواها ، كأن نزفت من جسدها آخر نقطة دم :

ـ من هو ؟

وهنا التقى الوجهان الدامعـان ، تحت خفقات النور النضناض وهمست الاخت الصغرى : فريد •••

ـ كيف ؟ فريد ! يا لاسم مريم ، وهل يستطيع ؟ وكيف يعيش وهو لا يزال بعد تلميذاً ؟

ـ لا أدري •

ـ أتهربين معه ؟

ـ نعـم •

ـ متى ؟

ـ عندما يريد •

ـ أيحبك !

ـ حتى الموت • يموت معي أو نعيش معاً • فكم يردد لي ذلك ؟

••• وساد سكون وازداد الهمس خفوتاً :

ـ وهل تعارفتما منذ زمن ؟

ـ منذ عـام •

ـ أهـو الذي كـان يعطيك الورود التي كنت تخبئينهـا تحت صدارك حتى تذبل ؟

ـ هو بنفسه •

ـ ماذا يقول لك ؟

ـ لا شيء • ومنذ أسبوع بدا جريئا •

ـ هل قبلك ؟

ـ أجل •

ـ أين ؟

ـ من جبيني دائماً ومن كفي أحياناً •

ـ وكيف اتفقتما ؟

ـ لا أدري •

ـ وأين ستمكثان ؟

ـ لا أدري •

ـ لماذا لم تقولي لي ؟
ـ كنت أخشاك •
ـ والآن ؟
ـ أبــداً •
ـ لمــاذا ؟
ـ لأنني رأيتك تتألمين هــذا المساء بينما كنت تصلين ورأيت في عينيك اشعاعاً كأنه آخر ومضات الحياة • لا أدري ماذا جرأني عليك !

ـ كفى •••
ـ ومنذ ثلاث ليال ، كنت أسمعك تبكين وأنت نائمة • وهــذه الليلة دعاني قلبك اليك من حيث لا تشعرين • وكان له فــم وعينان ، ونطق وبيان •

ـ عفة ••• عفة ••• لا تزيدي •
ـ ما كنت أود أن يجري كل هذا بسرعة • وعندمــا شاهدتك الليلة أحسست أنني مثلك سأدرج أكفاني حيــة • كيف ذلــك ؟ لا أدري • لقد كنت أرى الألم معكوساً عليك شبحه ، مما لا يطيقه بشر مثلي • أنا شقية • أنا بائسة • سأهرب أو أقتل نفسي •
ـ عفة ••• ان الكلام يزيدك اضطراباً •• اصمتي •
ـ أواه ! كيف ذلك • اسمعي • عندمــا أذهب أترك لك هــذه الصورة وما عندي شيء أتركه لك سواها • صورتي مع فريــد • لقد التقطت لنا الصورة انطوانيت بآلتها الصغيرة •

ووضعت عفيفة الصورة تحت خد أختهــا التي أغرقها الذهــول فأطبقت جفنيها على دمع ساخن وسجت نفسها بلا حراك •

ـ نامي الآن ••• وسأنام •

وقفزت الفتاة الى سريرها وانطوت على نفسها طياً تحت لحافها •

بعد منتصف الليل قبيل الصبح رأت نور حلماً غريباً • لقد رأت أختها عفيفة تنام نوماً هادئاً وقد خرجت فخذها الغضة كما جرت عادتها ، لتعانق اللحاف ، ثم ما لبث السرير أن تململ فتحرك ، فارتفع في فضاء الغرفة متجهاً نحو النوافذ • وما لبثت النوافذ أن انفتحت على سعتها ، وانزاحت الستائر بلطف ، وخرج السرير الأبيض متهادياً في الفلك الأزرق ، وعفيفة لا تزال تنام دائماً • فصاحت نور من أعماقها وهي تجهش :

ـ عفة •• عفة •• أتتركينني وحدي ؟ أبهذه السرعة ؟ عفة •• عفة ، خبئي ساقك تحت اللحاف ، ان الليلة باردة ، والجو ماطر ••

واتنفضت نور من نومها فاذا بعفة تنام ، والفتيلة العائمة في الكأس تنازع الموت تحت قدمي المصلوب ، والنسوة حوله يبكين أبداً ويقرعن الصدور • وعندما انطفأت الذبالة ، وغرق رأسها المحروق في الزيت الحار ، ساد غرفة الأختين ظلام رهيب •



ملاك الموت

صورة من الحياة الريفية

خرجت سميحة ، وأغلقت وراءها باب الدار الخارجي اغلاقة حذرة• وما ان أحست بالهواء البارد يسفع وجهها في الزقاق ، حتى أسدلت نقابها ، وطوت الطفل تحت ملاءتها وأسرعت • أسرعت ، انها تحس بشيء من الوحشة والذعر ، فلم تغادر البيت منذ أسبوعين • وكادت تشمر وتنهزم • أين الناس ؟ هل صقعوا ؟

كان الزقاق مقفراً ، تصفر فيه الريح والبرد يحيل مياه المطر في الحفر الوسخة مرائي عكرة من جليد • وكانت السماء تظهر مربدة مكفهرة فوق الزقاق الضيق الذي تكاد بيوته تتعانق على الجانبين • على أن الريح العاصفة ما فتئت تمزق متراكب الغيوم هنا وهناك ، فلا يلوح للمرأة الناظرة الى بقعة الجلد فوقها أن هذا النهار غائم ماطر ، وكأنها اطمأنت الى صحو موقوت ، أخرجت من جيبها ورقة بقدر الكف ، نظرت اليها بقلق ثم ما لبثت أن طوتها في كفها حريصة ، وتريثت في مشيتها فوق الارض الموحلة هنا والمجلدة هناك بينما راحت تغمغم كلاماً غير مفهوم كأنها تلعن البرد أو تصلي وسارت في اتجاه الصيدلية القريبة •

لم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت تفكر ولاح عليها أنها ستعود ، عندما التفتت نصف التفاتة ، لكنها استأنفت السير بخطوات بطيئة • انها تفكر الآن بوجه الصيدلي الأحمر المقشور كأنه أليتا قرد ، يرسل نحوها عينين زرقاوين صغيرتين زجاجيتين ليقول لها ، وقد خرج من فمه ما يشبه ريح مسحوق ازالة الشعر : أين ثمن الدواء ؟ ألا تعرفين أنني لا أبيع بالدين ؟ فماذا تقول له ؟ وهبطت على جبينها فعينيها غمامة كئيبة وغدا وجهها كأنه شيء من هذا النهار المكفهر ثم التهمها تفكير ساحق ، ولم تعد تطيق قدماها الحركة • ماذا تقول لزوجها ؟ وكيف تعود اليه بلا دواء ؟• وكيف تقف أمام فراشه ثانية ، وهو يسبل على اللحاف يدين صفراوين ، لم يعد يشير الى وجود الدم فيهما سوى عروق زرقاء نافرة في هزال مخيف ؟ أيعذرها اذا علم أن ما له في ذمة صاحب العمل لم يقبض بعد ، أم يقفز نحوها من فراشه بعظامه البارزة وجمجمته الصفراء ليعتصر روحها في عنقها ؟ ثم كيف تنبت أمام نظرات عينيه الغائرتين اللتين يحضنهما هلال من اثمد أزرق كفرخي أفعى ، هاتين العينين اللتين ترقبان وترجوان وتهددان معاً ؟ رباه •• انها تخافه وتخشى عينيه ، ولا تطيق النظر الى يديه • انها لا تزال ترى في عينيه ويديه صورة ذاك الرجل القوي الغليظ عندما ينهال عليها بالضرب وينفلت نحوها بالشتم واللعن فلا تلبث أن تزداد حيرة وتبهم عليها عواطفها بين الشفقة والغضب ، والجرأة والجبن • ولكن وجه الصيدلي الأحمر المقشور يطل بين هاته الصور لينفخ في وجهها هذه الكلمات : ألا تعرفين انني لا أبيع بلا نقد الثمن ؟ ثم تمشي مسرعة كأنها وجدت المخرج من مأزق الحيرة فما تكاد تسرع قليلا حتى تقف ثانية ، مطرقة كأنها تفتش عن مفقود لها في الأرض الموحلة • ونام الطفل تحت ملاءتها

فكانت تشعر بأنفاسه السريعة تذيع في صدرها حرارة حلوة منعشة ، بينما يشتد هزيم الريح ويدوي صفيرها في منفرجات الزقاق الرطب •

عندما دعتها صاحبتها القديمة رفيقة ان تدخل لتشرب معها القهوة، لم ترفض مع أنها لم تنس السبب الذي غادرت بيتها من أجلـه • بل قبلت الدعوة مسرعة كأنها تهرب من مدرك لها آخذ بذيولها ، فاندفعت وراء هذه الصدفة كما تندفع الاخشاب نحو الشاطىء ، بعد أن تقاذفتها مناسم الموج • لقد دخلت البيت كأنهـا تفتش في حمى صاحبتها عن مخرج لها من الحيرة ، فألفت نفسها في دائرة من النساء يتربعن حـول الموقد ، يشربن القهوة ويصغين الى امرأة من النور ، تنشر بين يديهـا أصدافهـا البيضاء والسوداء ، مـا تني تتحدث عن البخت والمستقبل والزواج والسعادة ، فسرعان ما ألقت ولدها النائم في زاوية وانخرطت بعيداً في الحلقة • لقد كان الجـو دافئاً معطراً برائحة البن المحمص ، فأنست اليه ، واستسلمت في لغط الثرثرة والضحك الى ضجة تحملهـا عن نفسها الضعيفة التي خرجت بها منذ دقائق من غرفة زوجها المريض• ولكي تزيد نفسها طمأنينة خلعت معطفها الأسود وعلقته على مسمار في الحائط ، ورسمت على شفتيها ابتسامة تلميذ ، دخـل الصف لأول مرة • لقد كان وجهها شاحب اللون ، شارد النظرات ، مما دعا النسوة وكلهن صويحبات لها قديمات الى الضحك منها والسخرية من اهمالها نفسها • فهذه أنبتها على احتجابها وتلك على خسة تزينهـا وتحمرها ، وضربتها كف على كتفها ، وأخرى دفعتها ، ومـدت احداهن يدهـا فقرصتها في فخذها قرصة عنيفة ، تصاعد لهـا دم وجنتيها ورقصت في عينيها شعلة خابية ، ألقت على وجهها نوراً من الرونق المحفوف بالحياء والدهشة • وكان الدفء قـد دب في أوصالهـا ، فنسيت هواجسهـا

وهمومها وبدأت تشغفها لذة مفاجئة ، لذة اكتشاف الغيب ، ومعرفة المستقبل وسماع أحاديث الغد • ولعلها انتشت بسعادة أن تحس بأن لها مستقبلا ينتظرها ، وأمنية ما تترقبها ، ما هي ؟ تود لو تنطق هذه الأصداف الجوفاء ، أو تشير جدران هذه الفناجين البيضاء التي خططتها القهوة ، وبرقشتها برسوم وأشكال غريبة •

قالت لها صاحبة الفنجان ان شبحاً أسود ملقى في قعر الفنجان •• هو مريض على الأرجح • وقالت لها ان هدية ستهدى اليها ، ورسالة ستأتيها ، وجمعية تعقد في بيتها •• وطريق سفر •• ويوم نكد تمر به ودموعاً •• وفرحاً •• والعاقبة خير ! وانتهت صاحبة الفنجان بضحكة وضحكت النسوة ، واطمأنت نفس سميحة الى هذا الجو المرح ثم خاطبت ربة الدار النورية الوسخة المتكومة في عتبة الغرفة بين الأحذية ككلب غريب : ارمي صدفاتك لسميحة يا أختي ، لنرى بختها • وما كادت الزوجة تسمع صوت الصدفات الفارغات العاريات ، الملساء ، تقرع الأرض حتى سرت في جسدها قشعريرة ، وانصبت عيناها على يدي النورية الموشومتين بالخطوط الزرق ولبثت تصغي •

قالت النورية بعدما صبت أصدافها من قعب خشبي ثلاث مرات متواليات :

ـ ياست •• ياست •• أرى عجباً •• اسمعي ياست •• ان آخرة حياتك أحسن من أولها •• ستتزوجين ثلاث مرات •• وترزقين سبعة صبيان وابنة عوراء ••

فقاطعت النسوة بالضحك ، وخنق الدم وجه سميحة التي كظمت شفتيها على شيء هو بين الابتسامة الفرحة والاجهاشة المحتدمة • فيالها

من وقحة ! تتزوج ثلاث مرات ؟ ما معنى هذا ؟ لقد قفزت الى وعيها المخدر صورة المريض بسحنته المخيفة وصورة الصيدلي بوجهه الأحمر المقشور ، ولم يبق وراء هذه الصور الا الذعر والاضطراب ، وارتجاف الأنامل عندما استأنفت النورية نبوءاتها :

ـ لك حظ من الرجال يا ابنتي ‥ والأقارب لك كالعقارب . ان حسن نيتك أفضل من قوتهم . وقدرة الله فوق قدرتهم ‥ قولي ان شاء الله .

وضحكت السيدات وغمغمت سميحة : ان شاء الله !

ثم قالت النورية وقد رمت أصدافها للمرة الرابعة وراحت تشير الى ثلاث صدفات سود ، تشكل مثلثاً : ارادة الله فوق الجميع ياابنتي ‥ قولي ان شاء الله . أنت محسودة على سعادة لا تملكينها ، مأكولة مذمومة . ومن أولادك ترين الخير . قولي ان شاء الله . وعندما ألقت الصدفات هذه المرة كانت عينا النورية تجحظان ، ويداها تختلجان ، فراحت تصيح بالمرأة المذهولة : زكي ياابنتي ‥ زكي والا احترقت معك . وكانت حالة التشنج التي أصابت النورية قد رمت الذعر في الدائرة ، فاضطربت لها النساء ، ورجون سميحة أن ترمي للنورية شيئا وكانت سميحة لا تملك الا فرنكين في جيب صدارتها فأخرجتهما بأصابع مرتجفة وألقت احدهما بين يدي النورية التي راحت تلهث كأفعى محمومة ولبثت تصيح : زكي ياابنتي ، زكي والا احترقنا معاً واحترقت الدار . فرمت الزوجة بالفرنك الثاني وقد قلص وجهها الذعر وظلت المنجمة تصيح : زكي يا ابنتي ‥ زكي ‥ ثم شهدت النساء فتيلة من الخرق بقدر نصف ذراع تحترق ويخرج منها لهب كأنه احتراق البارود

فولولن ورحن يلقين في العتبة بين يـدي النورية قروشهن وفرنكاتهن وهي تردد : زكي يا ابنتي •• زكي والا احترقنا كلنا • ثم التهمت النار الفتيلة ، ولبثت على الارض رماداً بعدما نشرت في الجو رائحة كريهة وهدأت النورية وراحت تجمع قطع النقود وهي تبكي وتقول : ياابنتي •• ياابنتي ، أواه يامسكينة ! ان مـلاك الموت سيدخل دارك ويخرج حامـلاً بين ذراعيه شيئا • الله وحـده الستار •• قولي ان شاء الله • ولملمت النورية أذيالها ، وأفرغت أصدافها في كيس أزرق وخرجت من الدار راكضة والنسوة جامدات في أماكنهن بلا حركة وقد عقد الذعر وجوههن الحزينة •

كان المؤذن في المأذنة القريبة من البيت يعلن الظهر عندمـا عادت سميحة بقارورة الـدواء ، فدفعت الباب وصعدت ركضاً في السلـم الخشبية المخلوعة درجاتها • وعندما دخلت غرفة المريض كان ينام وأمه الى جانب رأسه تبكي • قالت سميحة لاهثة : كيف أحمد الآن ؟ فلـم تجب العجوز وعجلت بنظرات حادات صفعت بهـا كنتهـا • وأردفت سميحة : ياربي •• ان الصيدلي لم يسلمني الدواء بلا ثمن ! ثم وضعت يدهـا على قلبها كأنها تستعيد أنفاسها المتسارعة وقالت : استدنت ليرة سورية من اللحام توفيق •• على أمل أن يسلمنا أبو حسن ما تبقى من أجور أحمد • فتململت العجوز لتدل على أنها غير قانعة ووضعت يـداً على يد وعادت الى اطراقها فوق رأس ابنها ، وزمت شفتيها اللتين بدتا كحافة كيس مشدود من الداخل ، تلك هي شارة التذمر والغضب •

أطرقت سميحة كطفل ذليل ، ثم فطنت فجأة الى وجود ابنهـا على ساعدها فحسرت عنه الملاءة ، ونظرت اليه نظرة مشفقة كأنها لم تره منذ

ولـد • ثم راحت تتحسس قدميه الباردتين ، وصدره النازح عرقـاً غزيراً ، فوضعته على الأرض ، وتركته يبكي ، بينما خرجت لتحضر له قطعة من الخبز •

قبيل الغروب ، استفاق المريض من ذهوله ، وراح يجيل في الغرفة نظرات غريب عن الدار مستوحش ، فبادرته الزوجة بملعقة كبيرة من الدواء ، سمع لازدرادها في حلقه خشخشة أمعاء جافـة • لقد كـان مصاباً بالتيفوئيد • وأخذت تشتد عليه وطـأة الحمى ، فراح يهـذي ويهدد • انه يود أن يطير •• ويأكل •• ويشرب •• ويمزق بطن امرأته بخنجر •• قبل أن يموت • آه ياعاهرة !•• هل تتزوجين بعد موتي ؟ وخيل اليه أنه قادر على النهوض ، فرفع رأسه ، وهوى به على الوسادة فكادت تنخلع عنقه • ان عنقه هزيلة ، كعنق صوص منتوفة الزغب • وتذكرت الزوجة ما قالته النورية من أنها ستتزوج ثلاث مرات ، فراحت تبكي وتقول لنفسها وعيناها مغرورقتان : ليتني أموت قبلك ياأحمد •

لقد كانت تحبه • انها تحبه دائما • وتزوجته بارادتهـا ، وبعد أن رأته وعرفته وحدثته أيضا • ان صدفاً هيأت لها التعرف اليه ، انه نجار بارع ، وشاب قوي وجميل ، وبامكانها اليوم أن تنسى غلظته وقسوته في معاملتها • فمن الطبيعي أن يضرب الزوج زوجته • انها تحبه • وهو يفكر بموته وتركه اياها تتزوج من دونه رجلاً آخـر • مسكين انـه يتعذب • كيف تقنعه بأنها أرصدت حياتها وحبها له ؟ ودون أن تشعر ألفت يدها تمر على جبينه ووجهه ، بينما عيناه الغائرتان تحت السراج الداخن الزجاجة تحدقان بشره ورجاء الى وجهها المخطوط بالدموع • لم تكن الحمى في ساعة الشدة والعنف لتفقده صوابه • وانه ليصحو

في فترات ما صحواً غريباً فتعود الحياة الى عينيه الغائرتين • ثم مد يده الثانية ووضعها فوق يدها • وكأن هذه اليد الدافئة الموارة بالحياة ، نقلت اليه دفئها وحياتها فرانت على وجهه طمأنينة ناعمة ، فأطبق جفنيه ونام • كذبت النورية الدجالة ، ان ملاك الموت لن يدخل هذه الدار !• ان الزوجة المسندة رأسها الى طرف وسادة زوجها ، استمدت من طمأنينته ، طمأنينة وارفة كريمة • فستبقى الى جانبه وتحرسه •

في نصف الليل ، عندما اندست في فراشها لتنام الى جانب طفلها أحست به لا يزال بارد الاطراف ، ينزح جبينه وصدره عرقا غزيرا ، فضمته الى صدرها بكلتا ذراعيها ، وجربت ان تنام • ولا تدري هل نامت أم لا •• عندما وثبت مذعورة والطفل يسعل سعالاً حاداً قالت له : نم يا ابني •• نم •• نم ياحبيبي ودعني أنام •• وزادت رقة وحنواً في احتضانها اياه • على أنه ظل يبكي ويسعل • ان قدميه باردتان كالجليد ، وصدره ملتهب كالموقد ، وجبينه ما يزال ينفض عرقاً غزيراً ، وكانت دموعه تسح بكثرة دون أن يقوى على فتح جفنيه ، ثم أخذته نوبة سعال قوية ، انتفض لها صدره وارتجت أمعاؤه ، فدب الدفء في أطرافه وغدا بعد بضع دقائق كحجر ألقي في فرن ، حتى اكتوى بحرارته صدر أمه • وخفق لسان السراج خفقات متتاليات ثم انطفأ وقد امتلأت الغرفة الباردة برائحة النفط والقطن المحروق •

وعند الصباح كان الطبيب الذي قدم للاشراف على مريضه وجاره يقول للأم : انقلي الطفل الى غرفة ثانية ، لقد سممه جو هذه الغرفة ••• افتحي النوافذ مرة في النهار • اعتني بالطفل ودفئيه • ان احدى رئتيه مصابة • عليك بالحمية والمداراة •• وبعد أن تأمل طويلا في وجه الطفل الآخذ بالذبول ، هز رأسه وانصرف •

من كان يرى الزوجة بعد أربعة أيام مرت على مرض بكرها وثمرة زواجها الاولى،كان يرى الى أم مهدمة بائسة ، تروح بين فراشين وتبكي بين مريضين وتعيش قلقة منكودة بين غرفتين ، ما تكاد تستقر في الواحدة حتى يهيب بها الشبح الممدود في الغرفة الاخرى • فلم تعد تنام الا كما ينام الانسان في حلمه • ولم تكن تتذوق الا الماء والخبز اليابس • ولقد زاد في قلقها وذعرها أنها أصبحت تردد في كل وقت ما قالته النورية الساحرة الماكرة ، عندما اشتعلت النار أمامها وكانت تصيح : زكي يا ابنتي •• زكي •• ان ملاك الموت سيدخل دارك وسيخرج حاملا شيئا • لم يكن مرض زوجها فيما مضى ، يوحي اليها بمثل هذا الذعر القائم الحامل الى قلبها شعوراً نبياً يكاد يهتك لها الستر عن مجهول الغد ! وأي مصيبة أفدح من أن تتوقع المصيبة كل يوم وكل ساعة ؟ ان ابنها مريض محموم مهدم الصدر ، يسعل سعالا جارحاً ممزقاً • هذه حقيقة لا يمكن الاغضاء عنها اذا كان بامكان الأمل أن يحملها على تكذيب قول النورية • ولم تكن تجد في يدها من وسائل النضال بوجه هذه الأوهام المدوية في صدرها الصارخة بوجهها الا أن تنتقل من غرفة الى غرفة بين ساعة وساعة ، مسرعة لاهثة كأن وجودها فوق رأس مريضها سينقذه ويصد عنه الغوائل • وقد كان من اكتسابها هذه القناعة ما أرهق جسمها وقرح جفنيها وأثلج صدرها وقوّى عزمها معاً ! فلم تعد تشعر بالجوع ولم تعد تلذ النوم • انها تتغذى من هذه القناعة المحسنة ، اذ تشعر ان رأس مريضها بين ذراعيها ، وأنفاسه على وجهها ، وأنّاته في سمعها ، تبلّد حلقها ونفضت عيناها ذبول النعاس ، فكأن فمها ما عرف الطعام ، وعينيها ما تعوّدتا النوم • وغدت تشعر بنشاط غريب ، لا يأتي بمثله امتلاء المعدة ، وكفاية الحواس ، فكانت

اذا أغلقت الباب علـى مريضها لبثت تنظر اليه من ثقب المفتاح نظرة حذر ، ثم تمشي على سطح غرفة متداعي الأخشاب ، لتصل الى الغرفة الثانية حتى اذا لبثت فيها وقتاً خرجت لتوصد الباب ثانية ولتنظر من ثقب الباب وجه المريض المطمئن الى أنها ستعود دائما . لقد كانت تعود دائمـا وهي التي تشعر بأن الحياة الخافقة كالورقة الصفراء في هـذا الصدر المكدود ، انما تستطيع أن تدعمها بحركة أو بكلمة أو بنظرة . وقد كانت تخرج ، وتدخل ، وتتحرك وتضطرب بقدر ما تحس أن كلام النورية صحيح ، وبقدر ما تعتقد أن حركتها ستقف دون سكوت الموت. أصحيح انني أستطيع انقاذ ابني وزوجي ؟ أصحيح ؟ ومن كان يطرح عليها مثل هـذا السؤال ؟ واذا مـا أغمضت عينيها نصف اغماضة في ساعات الاعياء الثقيلة بعد نصف الليل ، تحس ان السماء عهدت اليهـا بعمل جليل .

منذ يومين بدأ الزوج يفقد وعيه . قال الطبيب ان المريض يدخل في أخطر مراحـل المرض . أمـا الطفل فقد لف صدره الصغير بالأقمشة الحارة حذراً من أن تصاب الرئة الثانية . انه يبصق دوماً وكان اذا بكى سالت دموعه دون أن يسمع صوته ثم جفت دموعه ، فصار بكاؤه صورة من الألم الملجم على وجهه الشاحب الذاهب . لم تعد الصلة التي تربط هذه المرأة بمريضها الا العيون التي تفتح وتغلق بذهول واعياء كما تطل شمس الشتاء قبيل الغروب اطلالة خفية قبل أن تبتلعها الغيوم والغروب. وكانت الساهرة الدائمة اذا أخذتها سنة من النوم غالبة انتفضت مذعورة كأن روح المريض قد خرجت من كفها الأمينة وساعديها الحريصين . الله اذا أغمض جفنه حدثت الزلازل ، واذا نام ثانية أطبقت السماء على الأرض . كذلك هي انهـا شيء من تلك العزة الالهية الساهرة أبـداً

المسؤولة عن كل شيء • ثم تروح وتغدو وتذرع الدار الواسعة بين الغرفتين كأنها الملاك الحارس على موعد مع ملاك الموت • وأحياناً كانت تنهار فيها مقاومتها الجبارة وحرصها العنيد ، فيتخاذل ايمانها وتضعف حماستها فتستسلم لارادة الموت وتعود تخاطب نفسها : اذا كان ملاك الموت سيأخذ أحداً فأي المريضين يجب أن يأخذ وأيهما أعطيه ؟ انها ساعات العذاب المرير • كيف تختار •• وكيف تعطي ؟ أنها تتصلى عذاباً جهنمياً لا تطيقه قوى الانسان • أبامكانها أن تختار للموت أحد المريضين ، فترفع يدها عن الواحد لينجو الآخر ؟ رباه ! لابد لملاك الموت من أن يطرق الباب والا كيف عرفت النورية ان زوجها مريض وما معنى أن وحيدها غدا مريضاً أيضاً ؟ وكان يخيل اليها في ساعة بعيدة من الليل اذا ما نام مريضاها ، وسادت الوحشة خرابة الدار ، انها هي نفسها التي تختار لا ملاك الموت • فتروح مكثرة من روحاتها وغدواتها بين الغرفتين كأنها تمانع عن نفسها ذاك الاختيار ، الذي ستمانع عنه بالوقت نفسه ملاك الموت •

في ليلة عاصفة ماطرة شديدة الزمهرير أوت المرأة الى غرفة الزوج بعد أن نالها من الاعياء مالم يعد بوسعها الا أن ترزح تحته لتستريح فأوصدت الباب باحكام ، وأرخت الستائر ، وجلست القرفصاء على الأرض تحت قدمي زوجها مرخية رأسها الثقيل بين ركبتيها وراحت في ذهول كأنه النوم الذي لا قيامة منه • كانت أوهامها تتجاذبها بين الرجاء الكبير واليأس المرير فتحاول نسيان حاضرها باسترجاع ما لذّ من ذكريات ماضيها وطفولتها فلا تجد الا الحياة الغضة والانس المرح والطفولة الضاحكة والرجاء المستبشر فتنسى وتسلو وتسري في جسدها المرهق ارتعاشة النبتة الصادية اذا أهاب بها ندى الفجر وتود لو

تستسلم الى أناشيد هذه الذكريات فتضطجع ، وترفع فوق جنبها المقرور جناحاً من لحاف زوجها ، فتغمر به وجهها وتنام مـلء جفنيها وقلبهـا وحواسها • وانها لفي غمرة هذه السلوة الخادعة ، اذا بدرفة احـدى النافذتين تندفع بعنف فترطم الجدار بصوت داوٍ فتهاجم الغرفة موجة من الريح تنشر عليه وفوق فراش المريض ، رشاشاً مثلجـاً من المطـر المنهمر بغزارة فتثب المرأة مجنونة ذعراً ، وتكاد تولي هاربة • كانت الريح المتدفقة بموجات باردات تدفع في جو الغرفة شق السجافةالطويل فيبدو في الظلام كجناح خفاش مهيب يهوم في الفضاء قبل أن يستقر • ولكنها لم تهرب ، بل ودّت لو تصيح وتستغيث وتصرخ : ملاك الموت •• ملاك الموت •• أواه ••• لقد اختار زوجي • وتحولت نحو الباب فما كادت يدهـا تلمس تفاحة القفل ، حتى تنبهت حواسها المغيبة تحت تأثير المفاجأة فارتدت بخفة نحو النافذة وأغلقت الدرفة • وما هو الا قليل حتى انقطعت الحركـة ، وارتخت الستائر وساد سكون فمـاذا جرى لأحمـد ؟

وأقبلت الزوجة على فراش المريض تتلمس رأسه ويديه فألفته يتنفس ويتململ في فراشه • قالت له بحنو ولهفة وذعر معاً : أحمد •• أحمد•• هل أنت مستيقظ ؟ أجاب دون إبطاء : من دخل الغرفـة ؟ فما كادت تسمع كلماته حتى هالهـا أن يخاطبها زوجهـا دون غمغمة فهرعت الى السراج تنيره وأجابت : لم يدخل أحد ••• من تريد أن يدخل علينا في مثل هذه الساعة ؟ ان أمك لم أرها منذ ثلاثة أيام • أجبني أحمد هل أنت مستيقظ ؟ فتريث الرجل وسألها جرعة من المـاء • قالت : بـل سأعطيك كأساً من عصير البرتقال •• ألا تحب ؟ وكان يخيل الى الزوجة المحتفية بيقظة زوجها في مثل هذه الساعة ان كارثة ما ستقع ثم وقعت••

فهل زالت ومضت ؟ أليس ملاك الموت طارق الليل هذا ؟ ولبثت تفكر • ولأول مرة منذ مرض زوجها وولدها خشيت أن يكون اختيار الموت قد وقع على زوجها ثم استطاعت أن تطرد هذا الوهم المفزع •

في الساعة الخامسة من تلك الليلة العاصفة استفاقت الأم من ضجعتها الذاهلة ، كأنها حلمت أنها نسيت شيئا • فما كادت تنظر حولها حتى انتصبت على قدميها وخرجت تسرع في خطواتها فوق السطح المتداعي الاخشاب المائل الى الانهيار لتغشى غرفة الطفل • يالها من قاسية ! كيف أمن جفناها فنامت ساعتين الى جانب فراش الزوج ؟ وكيف أفلتت من يدها ساعتان بعيدة عن المريض الصغير ؟ ثم فاجأتها خاطرة شريرة • فلعنت وشتمت وأسمعت الليل صريف أسنانها ودخلت الغرف ذاهلة اللب طائشة الصواب وصاحت فور دخولها : عبد الرحمن ••• عبد الرحمن ••• انها لا تدري ماذا دعاها أن تصيح باسم ولدها عندما وقع عليه بصرها في مهده ، ماذا حدا بها أن تنادي وهي تعلم أنه لم يبلغ من السن ما يمكنه من اجابة النداء ، ثم صاحت : عبد الرحمن ••• حبيبي ••• ها أنا جئت • ووضعت يدها على جبينه ثم خدها أمام أنفه ثم رأسها على صدره ثم اختلجت يداها وارتعشت شفتاها وانتفض جسدها ، وبدأ قلبها يهاجم نحرها هجمات عنيفات • فأخذت الطفل بين يديها • ولكن الطفل لم يكن يبكي ، أو يتألم ، أو يتحرك • ليس لصدره حركة ، ولا لأنفاسه دفء • وكانت عيناه مغمضتين نصف اغماضة ويداه بيضاوين باردتين كالثلج •

كان ذلك مع الصباح عندما سمع المستيقظون الأول صياح الديك وأذان الفجر • فأطلقت الأم ولولة حادة مزّقت ما تبقى من سدفة الليل

فقالت جميع النساء اللواتي سمعن الولولة : مسكينة سميحة !• أمات زوجها أم ولدهـــا ؟

وكان النهار الجديد ناعماً رخياً فبزغت الشمس وهدأ هبوب الريح فخرج الناس من بيوتهم وهم يتطلعون الى بقايا الغيوم التي تصهرهـا الشمس فما تلبث أن تتوارى من صفحة السماء • وعندما دبت الحياة في الزقاق الرطب الموحل الذي تكاد تتعانق البيوت على جانبيه مشى مع المارة خارجاً من بيت سميحة ، شيخ يحمل على ساعديه الممدودتين صرّة زرقاء مستطيلة كلما مشى بضع خطوات صاح : لا اله الا الله •• وكانت نساء الجيران يطللن على الزقاق وقد حجبن وجوههن فما تبين سوى عيونهم الباكية ويردّدن : مسكينة سميحة مات وحيدها •

•• •في ليلة عاصفة حالكة ، شديدة الزمهرير •••

خرج ملاك الموت من أبراجه السوداء قاصداً المدينة على موعد مـع أصحاب هذه الدار ••

طرق الأبواب فألفاها موصدة ••

ولكنه دخل مع الريح من احدى النوافذ التي لـم تكن محكمـة الاغـلاق •

لقد كان يريد رجلا قصده في الغرفة •

ولكنه وجد فيها الملاك الحارس ساهراً فرجع خائباً •

وعندما دخل غرفة الطفل لم يجد من يحرسه الا سيف قديم معلق في الجدار فابتسم ابتسامة ساخرة وحمل الطفل على جناحه الأسود ، منادياً الانتقام •

••• وهناك في برجه الأسود الشاهق استل روح الطفل وأفرغهـا

في زجاجة بيضاء صغيرة أحكم سدها وختمها • وعاد فأضجع الطفل في مهده ، وأسدل على وجهه الحبيب وشاحاً من الشمع الأصفر •

هكذا تكلم سهوم الزوجة الحزينة وصمتها •• مساء •

انها الآن تلازم زوجها جاثمة أمــام رأسه دائمة التحديق في عينيه صامتة ومحتسبة •• وشاكرة • فان يد الزوج الصفراء تنبسط الان على حافة اللحاف وقد أخذت تدب فيها ألوان الحياة •



جنازة الآلة

قصة ريفية

قالت الزوجة بعد صمت ، وبينما كانت تسرح بأصابعها شعر طفلها بحركات عصبية :

ـ اذن أنت لا تزال مصمما على بيع البغال الثلاثة ؟..

قال الزوج وهو مضطجع نصف اضطجاعة :

ـ خلاص ... انتهى ... (ثم بلهجة حازمة) أنت مجنونة . ولماذا لا أبيعها ؟ ألا تعلمين أن من يسافر الى الشام في « كميوني » بنهار كامل ، طويل ، من الصباح حتى المساء ، يفضل على ذلك أن يصل في القرد ... في الطرومبيل ، بساعة ونصف فقط ؟.. وماذا أفعل بعد ذلك بالبغال ؟ خلي عنك يا امرأة . وحدُها ديار البلى ...

وفجأة انخلع الباب الخارجي الذي يؤدي الى دار وحيدة الغرفة ، وحظيرة ، ومربط دواب ، واندفع صبيان وهما يصيحان بدهشة وفرح : اتومبيل ... اتومبيل !.. وعاد الواحد من حيث أتى ولا يزال يطفر ويرقص ، وتخلف الصبي الثاني فاقتلع أخاه من حضن أمه ، وساقه الى الخارج ولا يزال يصرخ : اتومبيل عزيز ... جاء اتومبيل عزيز !..

نظر « جمعة » زوجه نظرة احتقار لاصرارها وتعنتها ، كأن طفرة الصبيين الفرحة ، دليل على تأييد رأيه ، واشتراك جميع الناس في مثل شعوره ، حتى الاطفال • وما زاد على أن لفظ : هه !•• وشد بطنه بحزام جلدي عريض ، ولبث واقفا في الباب المطل على ساحة القرية • وأما الزوجة التي ما تنفك تدافع عن الكميون والبغال ، فلم تكن لتهضم بعد هذه المفاجأة الجديدة بوصول السيارات الى قريتها • ألأنها كبقية النساء لا تشعر بالاحداث أو تتأثر بها ، الا متأخرة ؟

قال الزوج وقد ارتخى جنبه الايمن على باب الدار باعياء ويأس :

ـ انتهى ••• خلص ••• انقطع رزقي • يجب أن أفتش عن عمل آخر • وسأبدأ ببيع البغال بعد هذه السفرة •

ولم تقو الزوجة على السكوت ، فتصنعت لهجة عتب هادئة ، بينما راحت ترقع صدار زوجها :

ـ مجنون • مجنون • أيطاوعك قلبك في بيع « صبيح » ؟

أجاب الزوج وقد عاوده اهتمامه :

ـ صبيح ••• صبيح ••• وهل يرد عنا هذا الحيوان غائلة الجوع ؟ مرحبا صبيح !

ـ مع أنه سبب سعادتك ، يا كافر • ما كان أحسن طالعه يا مغفَّل • وكم كان قدومه خيرا لنا !

وطفقت « سمية » تبكي وتجهش ، كما تفعل جميع نساء المدن ، عندما تفلت من قبضاتهن آخـر حيلة للتغلب على الرجال ، بينما كان الزوج يتكلم :

ـ سأسافر • سأبيع البغال في الشام • لعنة الله على تلك الساعة •

أنت مجنونة • أتبكين من أجل صبيح ••• من أجل حيوان ؟ أهو أبوك ••• أخوك ؟•••

ـ مجنون وحدك يا ابن المجانين • أتظن أن ثمن ثلاثة بغال يكفي لشراء عجلة من عجلات سيارة ؟ ألا تعلم أن شعرة من ذنب صبيح تسوى كل ما في الشام من اتومبيلات ؟

فهدأ الزوج قليلا ازاء ثورة المرأة وقال :

ـ ما يهم ، ما يهم ، لن أكون بعد اليوم سائقا في سيارة أو في كميون • سأفتح دكاناً • ان الارجل الغريبة يا امرأة بدأت تطأ بكثرة أرض هذه الديار • وماذا يفيدني النجم الابيض في جبين صبيح ، أو الشعر الغزير في ذنبه الطويل ؟ أنت مجنونة •

ـ معلوم • تريد أن تجعل نفسك أفندي ••• يا خبر الشؤم •

وقصد الزوج هذه المرة أن يثير حفيظة الزوجة، فقال لها وهو يدفعها في ظهرها بقدمه :

ـ قومي ••• قومي ••• وتطلعي الى هذا السرب من الغزلان •

ـ غزلان ••• أي شيء ؟

ـ نساء ••• بنات ، سيقان ، دنيا ، ناس ••• الله رب الشام !

ـ معلوم ، تريد أن تفتح دكانا ، وكان ينقصك يا أعور الكلب أن تصاحب بنات الشام !

••• وكان سكان القرية قد زحفوا برمتهم نحو الساحة فتجمعوا حول السيارة ، يتحدثون عن عجائب الزمان وقرب نهاية العالم • فكان الاطفال يرقصون كأنهم في عرس والنساء يتهامسن ويتغامزن ، وتود كل واحدة أن تكون زوج عزيز •

في المساء نفسه أقلع كميون « جمعة » بشراعه الابيض نحو المدينة •
وطارت سيارة « عزيز » في صباح اليوم التالي •

عبثاً حاول جمعة أن يبيع بغاله في المدينة • فقد تدنت أسعار البغال فجأة حتى ان مجموع أثمانها لا يساوي بالفعل ، كما قالت الزوجة ، عجلة من عجلات سيارة • فأرجأ البيع النهائي الى سفرة قادمة ، وأعد عدة الرجوع الى القرية • وكان أقسى ما يكرهه أن يعود ثانية ، بكميونه الحقير •

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع لغيابه ، نشر جمعة الخيمة البيضاء فوق مركبه ، وأصلح ما تفكك من ذاك الصندوق الخشبي المخلوع • ووجد زبونا واحدا فقط يركب معه من الخان ، حيث جرت العادة أن يحط الرحال ، هو « أبو سماحة » العجوز الذي هبط المدينة منذ شهر ليتداوى ، فصرف عليه ابنه العامل ، دون جدوى ، حتى اذا يئس منه رماه في الخان ، وشارط « جمعة » على حمله الى القرية لقاء ثمن سيدفعه له على أن يصل سالما • وحمل الكميون الى جانب أبي سماحة جملا مكسورا ، وبطة واحدة وثلاث عنزات • وكان الركب يسير بتمهل وجلال ، مترجحاً ذات اليمين وذات اليسار ، فيسمع بين وقت وآخر ، هدير الجمل المكسور ، وأنين المريض العجوز • أما صبيح ، فقد ربط الى مؤخرة الكميون ، لعدم الحاجة اليه • فلم يكن راضياً بهذه القسمة • وكانت سحنته ذليلة ، وذنبه الطويل كاسفاً ذابلا ، فهو يفضل أن يتقدم الركب مجاهداً على أن يربط الى المؤخرة كحمار أعرج •

قطعت المركبة ، بسير بطيء ثقيل ، بين السهول والاودية ، ثلاثة

أرباع النهار ، وثلاثة أرباع الطريق • وبينما الشمس تميل هبوطا عن قبة الفلك ، ثارت زوبعة من غبار وراء الكميون ما لبثت أن انجلت عن سيارة عزيز تنهب الارض ، وتملأ القفــار دوياً • وعندما اقتربت من المركبة ، وشاهد القرويون كميونهم القديم جاشت في نفوسهم عواطف غريبة ، أطلوا من النوافذ ، واستخفهم الطرب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الظفر فراحوا يهتفون ويغنون • وبلغت النشوة في رؤوسهم مبلغا أحسوا له بشهوة للانتقام من جمعة وكميون جمعة وكل ما يمت الى جمعة بصلة• فراحوا ، والسيارة تحاذي المركبة وتمر ، يرمون جمعة بما في أيديهم من عماشيش العنب ، وقشور البطيخ،ضاحكين مقهقهين • ثم تقدمت السيارة مثيرة وراءها العجاج جبالا لا يمر بها البصر • فاضطر جمعة الى الوقوف، ساحبا بخناق البغلــين المهتاجين لاعناً السيارات ومخترعيهــا وكل من يشتريها • وعندما استفاق من ذهوله بعد قليل ، وانجابت غيوم الغبار ، التفت نحو قبو الكميون ، وهو يمسح بكمه شاربيه المعفّرين فلم يسمع حركة • فلقد هربت البطة ، وتوارت احدى العنزات ، ودمي رأس الجمل لفرط ما خبط به جانبي المركبة ، فانطرح على طول المكان وعرضه ، وكان « أبو سماحة » العجوز ينام نوماً ثقيلا كأنه الموت ، فود جمعة لو يعلم ما بالزبون المريض ، لو لم يكن يكره أن يتدخل بما لا يعنيه ، في مثل هذه المواقف المضاعفة الحراجة ••• وأما صبيح الذي أثاره مشهد السيارة الغريب ، فقد حاول الافلات ، فلم يستطع وراح يضرب بمؤخرتيه الهواء ، فحول جمعة رأسه ، حزينا ، ونهر البغلين ، ملوحاً بالسوط الطويل ، وقد غام وجهه بالدم ، فسارت المركبة تطحن حجارة الطريق •

ــ انتهى الامر ، خلاص ••• ــ قال جمعة ــ ان هذه الآلة الجهنمية

قتلت ثمانية أرواح دفعة واحدة ، عدا ما دهست من دجاج وحمير مذ دخلت القرية ، وقذفتنا بها المدينة ••• ثمانية أرواح : زوج وزوجة ، وثلاثة بغال وثلاثة أولاد •

ثم طغت عليه موجة من الحقد ، فاستنشاط ، ولعن ، وصخب وراح يهذي :

ــ خلاص ••• انتهى الامر ، انقطع رزقي ، ان أصحاب هذه الآلة يريدون الشر بنا ، والمكيدة لنا ، قتلونا ، قتلوني •

وراح يلهب الحيوانين بالسوط على الرأس وعلى الظهر وأينما اتفق، فثارا من الألم وراحا يقفزان قفزا ، والمركبة وراءهما تنحط وتنشال ، كأنها سارية باخرة شراعية ، يلعب بها الموج الشديد في عرض البحر •

وانحدرت الشمس نحو أفق المغيب فأشرفت المركبة على الوادي الاخير ، الوادي الذي تصعد ضفته نحو القرية ، ثم تنساب الطريق نزولا نحوها ، فأسرع البغلان ودب فيهما النشاط • لقد كان ذلك دليلا على أن القرية أصبحت قريبـة فاشتم منها الحيوانان المتعبان رائحة الاسطبل والتبن والراحة • ورفع صبيح رأسه لينظر من خلال قبة الخيمة نحو صاحبه الجالس في المقعد الامامي وقد انطفأت نار غضبه منذ زمن ، ولبث محدودباً كأنه يبكي •

في بطن الوادي لمح جمعة سيارة عزيز واقفة • وكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى الركاب منتشرين حولها ، فبدت من هذا البعد كخلية محطمة سرح منها النحل • فوقف على مقعده ونهر البغلين فأسرعا • وما كاد يتقدم قليلا حتى انفصل من الجماعة رجلان وتوجها نحوه • فماذا جرى ؟ ما الخبر ؟ ان قلبه آخذ بالخفقان • فهل تعرض قطاع الطرق

ولـد • ثم راحت تتحسس قدميه الباردتين ، وصدره النازح عرقاً غزيراً ، فوضعته على الأرض ، وتركته يبكي ، بينما خرجت لتحضر له قطعة من الخبز •

قبيل الغروب ، استفاق المريض من ذهوله ، وراح يجيل في الغرفة نظرات غريب عن الدار مستوحش ، فبادرته الزوجة بملعقة كبيرة من الدواء ، سمع لازدرادها في حلقه خشخشة أمعاء جافة • لقد كان مصاباً بالتيفوئيد • وأخذت تشتد عليه وطأة الحمى ، فراح يهذي ويهدد • انه يود أن يطير •• ويأكل •• ويشرب •• ويمزق بطن امرأته بخنجر •• قبل أن يموت • آه ياعاهرة !•• هل تتزوجين بعد موتي ؟ وخيل اليه أنه قادر على النهوض ، فرفع رأسه ، وهوى به على الوسادة فكادت تنخلع عنقه • ان عنقه هزيلة ، كعنق صوص منتوفة الزغب • وتذكرت الزوجة ما قالته النورية من أنها ستتزوج ثلاث مرات ، فراحت تبكي وتقول لنفسها وعيناها مغرورقتان : ليتني أموت قبلك ياأحمد •

لقد كانت تحبه • انها تحبه دائما • وتزوجته بارادتها ، وبعد أن رأته وعرفته وحدثته أيضا • ان صدفاً هيأت لها التعرف اليه ، انه نجار بارع ، وشاب قوي وجميل ، وبامكانها اليوم أن تنسى غلظته وقسوته في معاملتها • فمن الطبيعي أن يضرب الزوج زوجته • انها تحبه • وهو يفكر بموته وتركه اياها تتزوج من دونه رجلاً آخر • مسكين انه يتعذب • كيف تقنعه بأنها أرصدت حياتها وحبها له ؟ ودون أن تشعر ألفت يدها تمر على جبينه ووجهه ، بينما عيناه الغائرتان تحت السراج الداخن الزجاجة تحدقان بشره ورجاء الى وجهها المخطوط بالدموع • لم تكن الحمى في ساعة الشدة والعنف لتفقده صوابه • وانه ليصحو

في فترات ما صحواً غريباً فتعود الحياة الى عينيه الغائرتين • ثم مد يده الثانية ووضعها فوق يدها • وكأن هذه اليد الدافئة المورة بالحياة ، نقلت اليه دفئها وحياتها فرانت على وجهه طمأنينة ناعمة ، فأطبق جفنيه ونام • كذبت النورية الدجالة ، ان ملاك الموت لن يدخل هذه الدار !• ان الزوجة المسندة رأسها الى طرف وسادة زوجها ، استمدت من طمأنينته ، طمأنينة وارفة كريمة • فستبقى الى جانبه وتحرسه •

في نصف الليل ، عندما اندست في فراشها لتنام الى جانب طفلها أحست به لا يزال بارد الاطراف ، ينزح جبينه وصدره عرقا غزيرا ، فضمته الى صدرها بكلتا ذراعيها ، وجربت ان تنام • ولا تدري هل نامت أم لا •• عندما وثبت مذعورة والطفل يسعل سعالاً حاداً قالت له : نم يا ابني •• نم •• نم ياحبيبي ودعني أنام •• وزادت رقة وحنواً في احتضانها اياه • على أنه ظل يبكي ويسعل • ان قدميه باردتان كالجليد ، وصدره ملتهب كالموقد ، وجبينه ما يزال ينفض عرقاً غزيراً ، وكانت دموعه تسح بكثرة دون أن يقوى على فتح جفنيه ، ثم أخذته نوبة سعال قوية ، انتفض لها صدره وارتجت أمعاؤه ، فدب الدفء في أطرافه وغدا بعد بضع دقائق كحجر ألقي في فرن ، حتى اكتوى بحرارته صدر أمه • وخفق لسان السراج خفقات متتاليات ثم انطفأ وقد امتلأت الغرفة الباردة برائحة النفط والقطن المحروق •

وعند الصباح كان الطبيب الذي قدم للاشراف على مريضه وجاره يقول للأم : انقلي الطفل الى غرفة ثانية ، لقد سممه جو هذه الغرفة ••• افتحي النوافذ مرة في النهار • اعتني بالطفل ودفئيه • ان احدى رئتيه مصابة • عليك بالحمية والمداراة •• وبعد أن تأمل طويلا في وجه الطفل الآخذ بالذبول ، هز رأسه وانصرف •

من كان يرى الزوجة بعد أربعة أيام مرت على مرض بكرها وثمرة زواجها الاولى،كان يرى الى أم مهدمة بائسة ، تروح بين فراشين وتبكي بين مريضين وتعيش قلقة منكودة بين غرفتين ، ما تكاد تستقر في الواحدة حتى يهيب بها الشبح الممدود في الغرفة الاخرى . فلم تعد تنام الا كما ينام الانسان في حلمه . ولم تكن تتذوق الا الماء والخبز اليابس . ولقد زاد في قلقها وذعرها أنها أصبحت تردد في كل وقت ما قالته النورية الساحرة الماكرة ، عندما اشتعلت النار أمامها وكانت تصيح : زكي يا ابنتي .. زكي .. ان ملاك الموت سيدخل دارك وسيخرج حاملا شيئا . لم يكن مرض زوجها فيما مضى ، يوحي اليها بمثل هذا الذعر القائم الحامل الى قلبها شعوراً نبياً يكاد يهتك لها الستر عن مجهول الغد ! وأي مصيبة أفدح من أن تتوقع المصيبة كل يوم وكل ساعة ؟ ان ابنها مريض محموم مهدم الصدر ، يسعل سعالا جارحاً ممزقاً . هذه حقيقة لا يسكن الاغضاء عنها اذا كان بامكان الأمل أن يحملها على تكذيب قول النورية . ولم تكن تجد في يدها من وسائل النضال بوجه هذه الأوهام المدوية في صدرها الصارخة بوجهها الا أن تنتقل من غرفة الى غرفة بين ساعة وساعة ، مسرعة لاهثة كأن وجودها فوق رأس مريضها سينقذه ويصد عنه الغوائل . وقد كان من اكتسابها هذه القناعة ما أرهق جسمها وقرح جفنيها وأثلج صدرها وقوّى عزمها معاً ! فلم تعد تشعر بالجوع ولم تعد تلذ النوم . انها تتغذى من هذه القناعة المحسنة ، اذ تشعر ان رأس مريضها بين ذراعيها ، وأنفاسه على وجهها ، وأنّاته في سمعها ، تبلّد حلقها ونفضت عيناها ذبول النعاس ، فكأن فمها ما عرف الطعام ، وعينيها ما تعوّدتا النوم . وغدت تشعر بنشاط غريب ، لا يأتي بمثله امتلاء المعدة ، وكفاية الحواس ، فكانت

اذا أغلقت الباب على مريضها لبثت تنظر اليه من ثقب المفتاح نظرة حذر ، ثم تمشي على سطح غرفة متداعي الأخشاب ، لتصل الى الغرفة الثانية حتى اذا لبثت فيها وقتاً خرجت لتوصد الباب ثانية ولتنظر من ثقب الباب وجه المريض المطمئن الى أنها ستعود دائما • لقد كانت تعود دائما وهي التي تشعر بأن الحياة الخافقة كالورقة الصفراء في هذا الصدر المكدود ، انما تستطيع أن تدعمها بحركة أو بكلمة أو بنظرة • وقد كانت تخرج ، وتدخل ، وتتحرك وتضطرب بقدر ما تحس أن كلام النورية صحيح ، وبقدر ما تعتقد أن حركتها ستقف دون سكوت الموت • أصحيح انني أستطيع انقاذ ابني وزوجي ؟ أصحيح ؟ ومن كان يطرح عليها مثل هذا السؤال ؟ واذا ما أغمضت عينيها نصف اغماضة في ساعات الاعياء الثقيلة بعد نصف الليل ، تحس ان السماء عهدت اليها بعمل جليل •

منذ يومين بدأ الزوج يفقد وعيه • قال الطبيب ان المريض يدخل في أخطر مراحل المرض • أما الطفل فقد لف صدره الصغير بالأقمشة الحارة حذراً من أن تصاب الرئة الثانية • انه يبصق دوماً وكان اذا بكى سالت دموعه دون أن يسمع صوته ثم جفت دموعه ، فصار بكاؤه صورة من الألم الملجم على وجهه الشاحب الذاهب • لم تعد الصلة التي تربط هذه المرأة بمريضها الا العيون التي تفتح وتغلق بذهول واعياء كما تطل شمس الشتاء قبيل الغروب اطلالة خفية قبل أن تبتلعها الغيوم والغروب • وكانت الساهرة الدائمة اذا أخذتها سنة من النوم غالبة انتفضت مذعورة كأن روح المريض قد خرجت من كفها الأمينة وساعديها الحريصين • الله اذا أغمض جفنه حدثت الزلازل ، واذا نام ثانية أطبقت السماء على الأرض • كذلك هي انها شيء من تلك العزة الالهية الساهرة أبداً

المسؤولة عن كل شيء • ثم تروح وتغدو وتذرع الدار الواسعة بين الغرفتين كأنها الملاك الحارس على موعد مع ملاك الموت • وأحياناً كانت تنهار فيها مقاومتها الجبارة وحرصها العنيد ، فيتخاذل ايمانها وتضعف حماستها فتستسلم لارادة الموت وتعود تخاطب نفسها : اذا كان ملاك الموت سيأخذ أحداً فأي المريضين يجب أن يأخذ وأيهما أعطيه ؟ انها ساعات العذاب المرير • كيف تختار •• وكيف تعطي ؟ أنها تصلى عذاباً جهنمياً لا تطيقه قوى الانسان • أبامكانها أن تختار للموت أحد المريضين ، فترفع يدها عن الواحد لينجو الآخر ؟ رباه ! لابد لملاك الموت من أن يطرق الباب والا كيف عرفت النورية ان زوجها مريض وما معنى أن وحيدها غدا مريضاً أيضاً ؟ وكان يخيل اليها في ساعة بعيدة من الليل اذا ما نام مريضاها ، وسادت الوحشة خرابة الدار ، انها هي نفسها التي تختار لا ملاك الموت • فتروح مكثرة من روحاتها وغدواتها بين الغرفتين كأنها تمانع عن نفسها ذاك الاختيار ، الذي ستمانع عنه بالوقت نفسه ملاك الموت •

في ليلة عاصفة ماطرة شديدة الزمهرير أوت المرأة الى غرفة الزوج بعد أن نالها من الاعياء مالم يعد بوسعها الا أن ترزح تحته لتستريح فأوصدت الباب باحكام ، وأرخت الستائر ، وجلست القرفصاء على الأرض تحت قدمي زوجها مرخية رأسها الثقيل بين ركبتيها وراحت في ذهول كأنه النوم الذي لا قيامة منه • كانت أوهامها تتجاذبها بين الرجاء الكبير واليأس المرير فتحاول نسيان حاضرها باسترجاع ما لذّ من ذكريات ماضيها وطفولتها فلا تجد الا الحياة الغضة والانس المرح والطفولة الضاحكة والرجاء المستبشر فتنسى وتسلو وتسري في جسدها المرهق ارتعاشة النبتة الصادية اذا أهاب بها ندى الفجر وتود لو

تستسلم الى أناشيد هذه الذكريات فتضطجع ، وترفع فوق جنبها المقرور جناحاً من لحاف زوجها ، فتغمر به وجهها وتنام مـلء جفنيها وقلبهـا وحواسها . وانها لفي غمرة هذه السلوة الخادعة ، اذا بدرفة احـدى النافذتين تندفع بعنف فترطم الجدار بصوت داوٍ فتهاجم الغرفة موجة من الريح تنشر عليه وفوق فراش المريض ، رشاشاً مثلجـاً من المطـر المنهمر بغزارة فتثب المرأة مجنونة ذعراً ، وتكاد تولي هاربة . كانت الريح المتدفقة بموجات باردات تدفع في جو الغرفة شق السجافةالطويل فيبدو في الظلام كجناح خفاش مهيب يهوم في الفضاء قبل أن يستقر . ولكنها لم تهرب ، بل ودّت لو تصيح وتستغيث وتصرخ : ملاك الموت .. ملاك الموت .. أواه ... لقد اختار زوجي . وتحولت نحو الباب فما كادت يدهـا تلمس تفاحة القفل ، حتى تنبهت حواسها المغيبة تحت تأثير المفاجأة فارتدت بخفة نحو النافذة وأغلقت الدرفة . وما هو الا قليل حتى انقطعت الحركـة ، وارتخت الستائر وساد سكون فمـاذا جرى لأحمـد ؟

وأقبلت الزوجة على فراش المريض تتلمس رأسه ويديه فألفته يتنفس ويتململ في فراشه . قالت له بحنو ولهفة وذعر معاً : أحمد .. أحمد.. هل أنت مستيقظ ؟ أجاب دون إبطاء : من دخل الغرفـة ؟ فما كادت تسمع كلماته حتى هالهـا أن يخاطبها زوجهـا دون غمغمة فهرعت الى السراج تنيره وأجابت : لم يدخل أحد ... من تريد أن يدخل علينا في مثل هذه الساعة ؟ ان أمك لم أرها منذ ثلاثة أيام . أجبني أحمد هل أنت مستيقظ ؟ فتريث الرجل وسألها جرعة من المـاء . قالت : بـل سأعطيك كأساً من عصير البرتقال .. ألا تحب ؟ وكان يخيل الى الزوجة المحتفية بيقظة زوجها في مثل هذه الساعة ان كارثة ما ستقع ثم وقعت..

فهل زالت ومضت ؟ أليس ملاك الموت طارق الليل هذا ؟ ولبثت تفكر • ولأول مرة منذ مرض زوجها وولدها خشيت أن يكون اختيار الموت قد وقع على زوجها ثم استطاعت أن تطرد هذا الوهم المفزع •

في الساعة الخامسة من تلك الليلة العاصفة استفاقت الأم من ضجعتها الذاهلة ، كأنها حلمت أنها نسيت شيئا • فما كادت تنظر حولها حتى انتصبت على قدميها وخرجت تسرع في خطواتها فوق السطح المتداعي الاخشاب المائل الى الانهيار لتغشى غرفة الطفل • يالها من قاسية ! كيف أمن جفناها فنامت ساعتين الى جانب فراش الزوج ؟ وكيف أفلتت من يدها ساعتان بعيدة عن المريض الصغير ؟ ثم فاجأتها خاطرة شريرة • فلعنت وشتمت وأسمعت الليل صريف أسنانها ودخلت الغرف ذاهلة اللب طائشة الصواب وصاحت فور دخولها : عبد الرحمن ••• عبد الرحمن ••• انها لا تدري ماذا دعاها أن تصيح باسم ولدها عندما وقع عليه بصرها في مهده ، ماذا حدا بها أن تنادي وهي تعلم أنه لم يبلغ من السن ما يمكنه من اجابة النداء ، ثم صاحت : عبد الرحمن ••• حبيبي ••• ها أنا جئت • ووضعت يدها على جبينه ثم خدها أمام أنفه ثم رأسها على صدره ثم اختلجت يداها وارتعشت شفتاها وانتفض جسدها ، وبدأ قلبها يهاجم نحرها هجمات عنيفات • فأخذت الطفل بين يديها • ولكن الطفل لم يكن يبكي ، أو يتألم ، أو يتحرك • ليس لصدره حركة ، ولا لأنفاسه دفء • وكانت عيناه مغمضتين نصف اغماضة ويداه بيضاوين باردتين كالثلج •

كان ذلك مع الصباح عندما سمع المستيقظون الأول صياح الديك وأذان الفجر • فأطلقت الأم ولولة حادة مزّقت ما تبقى من سدفة الليل

فقالت جميع النساء اللواتي سمعن الولولة : مسكينة سميحة !• أمات زوجها أم ولدهـا ؟

وكان النهار الجديد ناعماً رخياً فبزغت الشمس وهدأ هبوب الريح فخرج الناس من بيوتهم وهم يتطلعون الى بقايا الغيوم التي تصهرهـا الشمس فما تلبث أن تتوارى من صفحة السماء • وعندما دبت الحياة في الزقاق الرطب الموحل الذي تكاد تتعانق البيوت على جانبيه مشى مع المارة خارجاً من بيت سميحة ، شيخ يحمل على ساعديه الممدودتين صرّة زرقاء مستطيلة كلما مشى بضع خطوات صاح : لا اله الا الله •• وكانت نساء الجيران يطللن على الزقاق وقد حجبن وجوههن فما تبين سوى عيونهم الباكية ويردّدن : مسكينة سميحة مات وحيدها •

•• •في ليلة عاصفة حالكة ، شديدة الزمهرير •••

خرج ملاك الموت من أبراجه السوداء قاصداً المدينة على موعد مـع أصحاب هذه الدار ••

طرق الأبواب فألفاها موصدة ••

ولكنه دخل مع الريح من احدى النوافذ التي لـم تكن محكمـة الاغـلاق •

لقد كان يريد رجلا قصده في الغرفة •

ولكنه وجد فيها الملاك الحارس ساهراً فرجع خائباً •

وعندما دخل غرفة الطفل لم يجد من يحرسه الا سيف قديم معلق في الجدار فابتسم ابتسامة ساخرة وحمل الطفل على جناحه الأسود ، منادياً الانتقام •

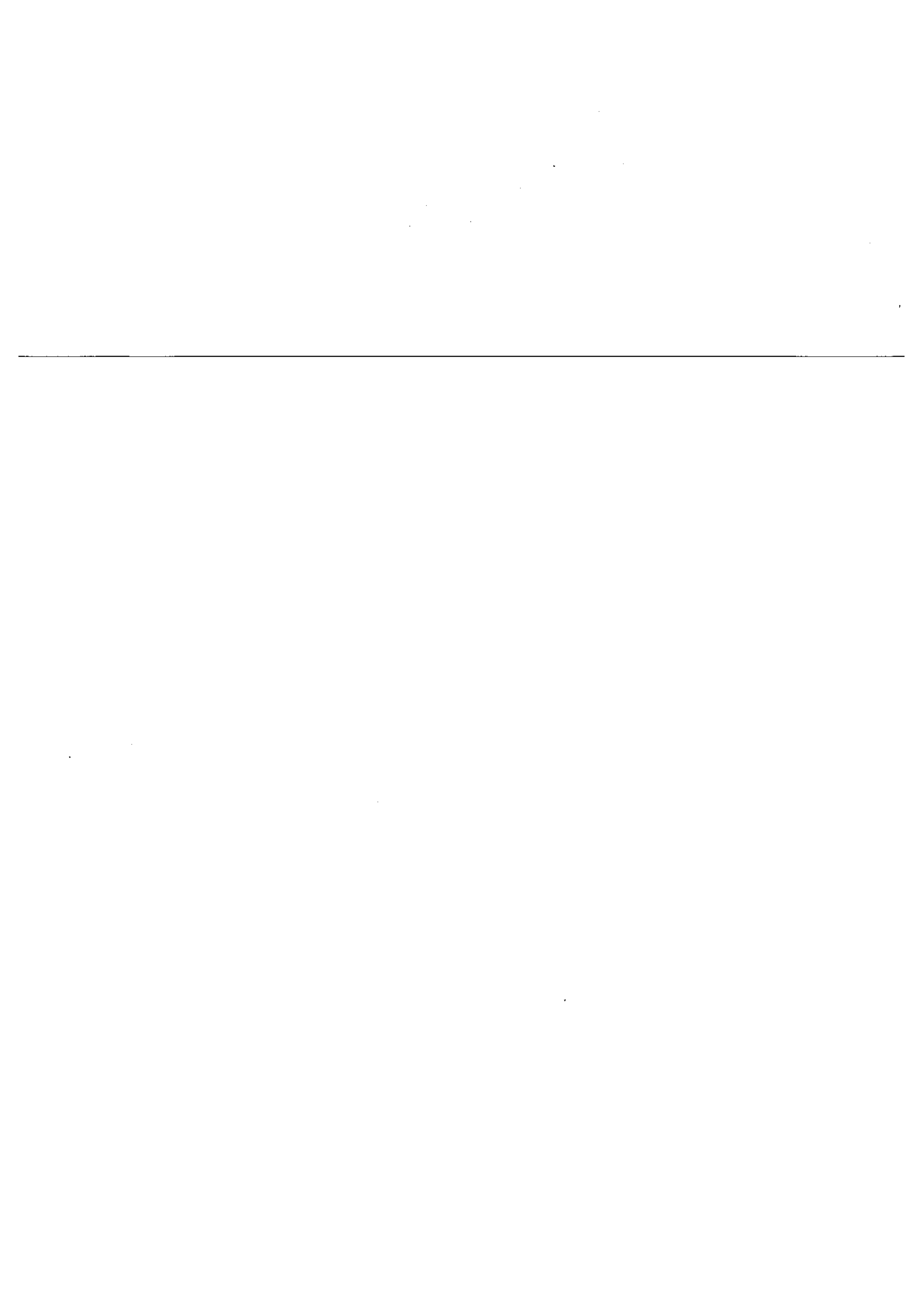
••• وهناك في برجه الأسود الشاهق استل روح الطفل وأفرغهـا

في زجاجة بيضاء صغيرة أحكم سدها وختمها . وعاد فأضجع الطفل في مهده ، وأسدل على وجهه الحبيب وشاحاً من الشمع الأصفر .

هكذا تكلم سهوم الزوجة الحزينة وصمتها .. مساء .

انها الآن تلازم زوجها جاثمة أمــام رأسه دائمة التحديق في عينيه صامتة ومحتسبة .. وشاكرة . فان يد الزوج الصفراء تنبسط الان على حافة اللحاف وقد أخذت تدب فيها ألوان الحياة .

* * *



جنازة الآلة

قصة ريفية

قالت الزوجة بعد صمت ، وبينما كانت تسرح بأصابعها شعر طفلها بحركات عصبية :

ـ اذن أنت لا تزال مصمما على بيع البغال الثلاثة ؟..

قال الزوج وهو مضطجع نصف اضطجاعة :

ـ خلاص ... انتهى ... (ثم بلهجة حازمة) أنت مجنونة . ولماذا لا أبيعها ؟ ألا تعلمين أن من يسافر الى الشام في « كميوني » بنهار كامل ، طويل ، من الصباح حتى المساء ، يفضل على ذلك أن يصل في القرد ... في الطرومبيل ، بساعة ونصف فقط ؟.. وماذا أفعل بعد ذلك بالبغال ؟ خلي عنك يا امرأة . وحدُها ديار البلى ...

وفجأة انخلع الباب الخارجي الذي يؤدي الى دار وحيدة الغرفة ، وحظيرة ، ومربط دواب ، واندفع صبيان وهما يصيحان بدهشة وفرح : اتومبيل ... اتومبيل !.. وعاد الواحد من حيث أتى ولا يزال يطفر ويرقص ، وتخلف الصبي الثاني فاقتلع أخاه من حضن أمه ، وساقه الى الخارج ولا يزال يصرخ : اتومبيل عزيز ... جاء اتومبيل عزيز !..

نظر « جمعة » زوجه نظرة احتقار لاصرارها وتعنتها ، كأن طفرة الصبيين الفرحة ، دليل على تأييد رأيه ، واشتراك جميع الناس في مثل شعوره ، حتى الاطفال • وما زاد على أن لفظ : هه !•• وشد بطنه بحزام جلدي عريض ، ولبث واقفا في الباب المطل على ساحة القرية • وأما الزوجة التي ما تنفك تدافع عن الكميون والبغال ، فلم تكن لتهضم بعد هذه المفاجأة الجديدة بوصول السيارات الى قريتها • ألأنها كبقية النساء لا تشعر بالاحداث أو تتأثر بها ، الا متأخرة ؟

قال الزوج وقد ارتخى جنبه الايمن على باب الدار باعياء ويأس :

ـ انتهى ••• خلص ••• انقطع رزقي • يجب أن أفتش عن عمل آخر • وسأبدأ ببيع البغال بعد هذه السفرة •

ولم تقو الزوجة على السكوت ، فتصنعت لهجة عتب هادئة ، بينما راحت ترقع صدار زوجها :

ـ مجنون • مجنون • أيطاوعك قلبك في بيع « صبيح » ؟

أجاب الزوج وقد عاوده اهتمامه :

ـ صبيح ••• صبيح ••• وهل يرد عنا هذا الحيوان غائلة الجوع ؟ مرحبا صبيح !

ـ مع أنه سبب سعادتك ، يا كافر • ما كان أحسن طالعه يا مغفَّل • وكم كان قدومه خيرا لنا !

وطفقت « سمية » تبكي وتجهش ، كما تفعل جميع نساء المدن ، عندما تفلت من قبضاتهن آخـر حيلة للتغلب على الرجال ، بينما كان الزوج يتكلم :

ـ سأسافر • سأبيع البغال في الشام • لعنة الله على تلك الساعة •

أنت مجنونة • أتبكين من أجل صبيح ••• من أجل حيوان ؟ أهو أبوك ••• أخوك ؟•••

ـ مجنون وحدك يا ابن المجانين • أتظن أن ثمن ثلاثة بغال يكفي لشراء عجلة من عجلات سيارة ؟ ألا تعلم أن شعرة من ذنب صبيح تسوى كل ما في الشام من اتومبيلات ؟

فهدأ الزوج قليلا ازاء ثورة المرأة وقال :

ـ ما يهم ، ما يهم ، لن أكون بعـد اليوم سائقا في سيارة أو في كميون • سأفتح دكاناً • ان الارجل الغريبة يا امرأة بدأت تطأ بكثرة أرض هذه الديار • وماذا يفيدني النجم الابيض في جبين صبيح ، أو الشعر الغزير في ذنبه الطويل ؟ أنت مجنونة •

ـ معلوم • تريد أن تجعل نفسك أفندي ••• يا خبر الشؤم •

وقصد الزوج هذه المرة أن يثير حفيظة الزوجة، فقال لها وهو يدفعها في ظهرها بقدمه :

ـ قومي ••• قومي ••• وتطلعي الى هذا السرب من الغزلان •

ـ غزلان ••• أي شيء ؟

ـ نساء ••• بنات ، سيقان ، دنيا ، ناس ••• الله رب الشام !

ـ معلوم ، تريد أن تفتح دكانا ، وكان ينقصك يا أعور الكلب أن تصاحب بنات الشام !

••• وكان سكان القرية قد زحفوا برمتهم نحو الساحة فتجمعوا حول السيارة ، يتحدثون عن عجائب الزمان وقرب نهاية العالم • فكان الاطفال يرقصون كأنهم في عرس والنساء يتهامسن ويتغامزن ، وتود كل واحدة أن تكون زوج عزيز •

في المساء نفسه أقلع كميون « جمعة » بشراعه الابيض نحو المدينة • وطارت سيارة « عزيز » في صباح اليوم التالي •

عبثاً حاول جمعة أن يبيع بغاله في المدينة • فقد تدنت أسعار البغال فجأة حتى ان مجموع أثمانها لا يساوي بالفعل ، كما قالت الزوجة ، عجلة من عجلات سيارة • فأرجأ البيع النهائي الى سفرة قادمة ، وأعد عدة الرجوع الى القرية • وكان أقسى ما يكرهه أن يعود ثانية ، بكميونه الحقير •

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع لغيابه ، نشر جمعة الخيمة البيضاء فوق مركبه ، وأصلح ما تفكك من ذاك الصندوق الخشبي المخلوع • ووجد زبونا واحدا فقط يركب معه من الخان ، حيث جرت العادة أن يحط الرحال ، هو « أبو سماحة » العجوز الذي هبط المدينة منذ شهر ليتداوى ، فصرف عليه ابنه العامل ، دون جدوى ، حتى اذا يئس منه رماه في الخان ، وشارط « جمعة » على حمله الى القرية لقاء ثمن سيدفعه له على أن يصل سالما • وحمل الكميون الى جانب أبي سماحة جملا مكسورا ، وبطة واحدة وثلاث عنزات • وكان الركب يسير بتمهل وجلال ، مترجحاً ذات اليمين وذات اليسار ، فيسمع بين وقت وآخر ، هدير الجمل المكسور ، وأنين المريض العجوز • أما صبيح ، فقد ُربط الى مؤخرة الكميون ، لعدم الحاجة اليه • فلم يكن راضياً بهذه القسمة • وكانت سحنته ذليلة ، وذنبه الطويل كاسفاً ذابلا ، فهو يفضل أن يتقدم الركب مجاهداً على أن يربط الى المؤخرة كحمار أعرج •

قطعت المركبة ، بسير بطيء ثقيل ، بين السهول والاودية ، ثلاثة

أرباع النهار ، وثلاثة أرباع الطريق • وبينما الشمس تميل هبوطا عن قبة الفلك ، ثارت زوبعة من غبار وراء الكميون ما لبثت أن انجلت عن سيارة عزيز تنهب الارض ، وتملأ القفـار دوياً • وعندما اقتربت من المركبة ، وشاهد القرويون كميونهم القديم جاشت في نفوسهم عواطف غريبة ، أطلوا من النوافذ ، واستخفهم الطرب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الظفر فراحوا يهتفون ويغنون • وبلغت النشوة في رؤوسهم مبلغا أحسوا له بشهوة للانتقام من جمعة وكميون جمعة وكل ما يمت الى جمعة بصلة• فراحوا ، والسيارة تحاذي المركبة وتمر ، يرمون جمعة بما في أيديهم من عماشيش العنب ، وقشور البطيخ،ضاحكين مقهقهين • ثم تقدمت السيارة مثيرة وراءها العجاج جبالا لا يمر بها البصر • فاضطر جمعة الى الوقوف، ساحبا بخناق البغلـين المهتاجين لاعناً السيارات ومخترعيهـا وكل من يشتريها • وعندما استفاق من ذهوله بعد قليل ، وانجابت غيوم الغبار ، التفت نحو قبو الكميون ، وهو يمسح بكمه شاربيه المعفَّرين فلم يسمع حركة • فلقد هربت البطة ، وتوارت احدى العنزات ، ودمي رأس الجمل لفرط ما خبط به جانبي المركبة ، فانطرح على طول المكان وعرضه ، وكان « أبو سماحة » العجوز ينام نوماً ثقيلا كأنه الموت ، فود جمعة لو يعلم ما بالزبون المريض ، لو لم يكن يكره أن يتدخل بما لا يعنيه ، في مثل هذه المواقف المضاعفة الحراجة ••• وأما صبيح الذي أثاره مشهد السيارة الغريب ، فقد حاول الافلات ، فلم يستطع وراح يضرب بمؤخرتيه الهواء ، فحول جمعة رأسه ، حزينا ، ونهر البغلين ، ملوحاً بالسوط الطويل ، وقد غام وجهه بالدم ، فسارت المركبة تطحن حجارة الطريق •

ــ انتهى الامر ، خلاص ••• ــ قال جمعة ــ ان هذه الآلة الجهنمية

قتلت ثمانية أرواح دفعة واحدة ، عدا ما دهست من دجاج وحمير مذ دخلت القرية ، وقذفتنا بها المدينة ••• ثمانية أرواح : زوج وزوجة ، وثلاثة بغال وثلاثة أولاد •

ثم طغت عليه موجة من الحقد ، فاستنشاط ، ولعن ، وصخب وراح يهذي :

ـ خلاص ••• انتهى الامر ، انقطع رزقي ، ان أصحاب هذه الآلة يريدون الشر بنا ، والمكيدة لنا ، قتلونا ، قتلوني •

وراح يلهب الحيوانين بالسوط على الرأس وعلى الظهر وأينما اتفق، فثارا من الألم وراحا يقفزان قفزا ، والمركبة وراءهما تنحط وتنشال ، كأنها سارية باخرة شراعية ، يلعب بها الموج الشديد في عرض البحر •

وانحدرت الشمس نحو أفق المغيب فأشرفت المركبة على الوادي الاخير ، الوادي الذي تصعد ضفته نحو القرية ، ثم تنساب الطريق نزولا نحوها ، فأسرع البغلان ودب فيهما النشاط • لقد كان ذلك دليلا على أن القرية أصبحت قريبــة فاشتم منها الحيوانان المتعبان رائحة الاسطبل والتبن والراحة • ورفع صبيح رأسه لينظر من خلال قبة الخيمة نحو صاحبه الجالس في المقعد الامامي وقد انطفأت نار غضبه منذ زمن ، ولبث محدودباً كأنه يبكي •

في بطن الوادي لمح جمعة سيارة عزيز واقفة • وكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى الركاب منتشرين حولها ، فبدت من هذا البعد كخلية محطمة سرح منها النحل • فوقف على مقعده ونهر البغلين فأسرعا • وما كاد يتقدم قليلا حتى انفصل من الجماعة رجلان وتوجها نحوه • فماذا جرى ؟ ما الخبر ؟ ان قلبه آخذ بالخفقان • فهل تعرض قطاع الطرق

خنجراً طويــلاً ، وهــو يصيح : لعينيك ياحسانة ، سنذهب معــاً •
واندفع نحو دار الضابط فما لبث الرجال أن ماجوا وراءه موجة واحدة وهم يرمون عقالاتهم في الهواء ، ثم تبعتهم حسانة بعدما رمت علــى جسدها بعض الستر ، وتبعتها النساء نادبات مولولات •• » •

قال محدثي : كان والدي يلهث تعباً ، وقد سال عرقه من حاجبيه

وشاربيه ، وقال وهو يضع يده المضطربة على ركبتي : مــا أقسى أن يعيش مثلي بين هذه الذكريات ياولدي !•• ثم تابع كلامه :

« لن أطيل عليك الشرح • لقد كانت معركة شديدة الهول • قتل فيها المهاجمون ثلاثة من رجال الدرك ، وجرحــوا الكثيرين منهــم ، وسقط منهــم عشرة قتلى وامرأتــان وطفــل ، قبل أن يصلوا الى دار الضابط الذي كان وراء مائدة الشراب يسكر كعادته ، وينتظر تسليم حسانة • وكان أول الداخلــين عليه حسان الفراري ، فبادره بضربــة قضيب رمان بين كتفيه وصاح به : ها أنا أيها الوحش ! فقهقه الضابط ولبث يشرب ثم قال : ها ها •• جئت ؟ • هل تريد أن تقدم لي أختك هذه الليلة ؟ وهنا تقدم أحد الرجال وركل بقدمه مائدة السكر ، فقلبها وتحطمت صحونها • ولكن ذلك لم يزد نظلي أفندي سوى قحة وجرأة وهو المستهين بشأن القوم ، فقال مقهقهاً : أين حسانة ؟ هل جاءت معكم؟ لقد طاب الآن أن أضاجعها على جثتكم ياكلاب !•• وقبل أن يقفز على قدميه ليتناول مسدسه من جيب معطفه المعلق ، بادره أحدهم بضربة من دبوسه الخشبي على رأسه ، وقبل أن يهوي علــى الأرض كان خنجر حسان يمزق أحشاءه • لقد كان من اليسير جداً أن يقتل القوم ظالمهم • ولكن هي حبة صغيرة من العزيسة كانت تقف دائما بين أكبر المظالم ، وأكبر الثورات •• حبة صغيرة ! » •

ثم قـال أبي : « والآن ستتم الفاجعة • التفت حسان فرأى أخته وراءه ، مبتسمة مستبشرة ، تسيل دموعها ، ويختلج فمهـا الجميل عن كلمات لا تعرف كيف تقولها • فصاح حسان صيحة مفزعة : حسانة •• حسانة •• أختي •• شرفي •• ورفع خنجره الذي لا يزال يقطر دمـاً ، وطعنها في نحرها • فسقطت على الأرض وهو يهمس : لن يراك الرجال بعد الآن !•

« مسكينة حسانة ! كان لابـد لها أن تكون احـدى الضحيتين : ضحية الفسق ، أو ضحية الشرف ، فكانت الثانية • لم يستطع أحد أن ينظر الى حسان ، أو يقول له : لماذا فعلت ؟ لقد كانوا يعلمون لمـاذا • فأطرقوا خاشعين ، تتوسط دائرتهم حسانة الفاتنة ، دامية صريعة •

« لقد كانت الابتسامة الاخيرة لا تفارق ثغرها المبلل بالدموع ، عندما انحنى عليها حسان ، فاحتضنها ، ووسد رأسهـا الذابل ذراعه وسمعها تهتف : حسان •• أخي •• بوركت يدك ياحبيبي • كنت أريد أن أستجديك الطعنة المنقذة فلم أجرؤ خجلا منك ، وصوناً ليمينك من أن يلوثها دمي • حسان ••• قل لي : هل أصاب خنجرك قلب الوحش؟ بوركت يدك ياحسان !• ثم احتبس لسانها ، وظلت بضع ثوان تبكي حتى سالت روحها الجميلة من عينيها !•• »

قال صاحبي : « ولبثت أبكي وأبي طويلاً ، وكدت أنسى قصة جرحي • فسألته : وقصة الجرح ؟ فدلف نحوي ولبث يحدق في الأثر وقال : ان تاريخ جرحك لم يكن شيئا يذكر لولا هذه الحوادث المؤلمة التي سردتها لك • لقد كنت وبعض رفاق الطفولة تلعبون في الساحة ، عندما وقعت حوادث ذاك المساء المشؤوم ، وان شئت قل ليس مشؤوماً فأصابك دركي بعقب بندقيته وأدماك • فحملتك وأدخلتك دكاناً قريباً

ثم عصبت رأسك بمنديل ، وعندما انتهت المعركة عدت اليك فألفيتك تنـــام •

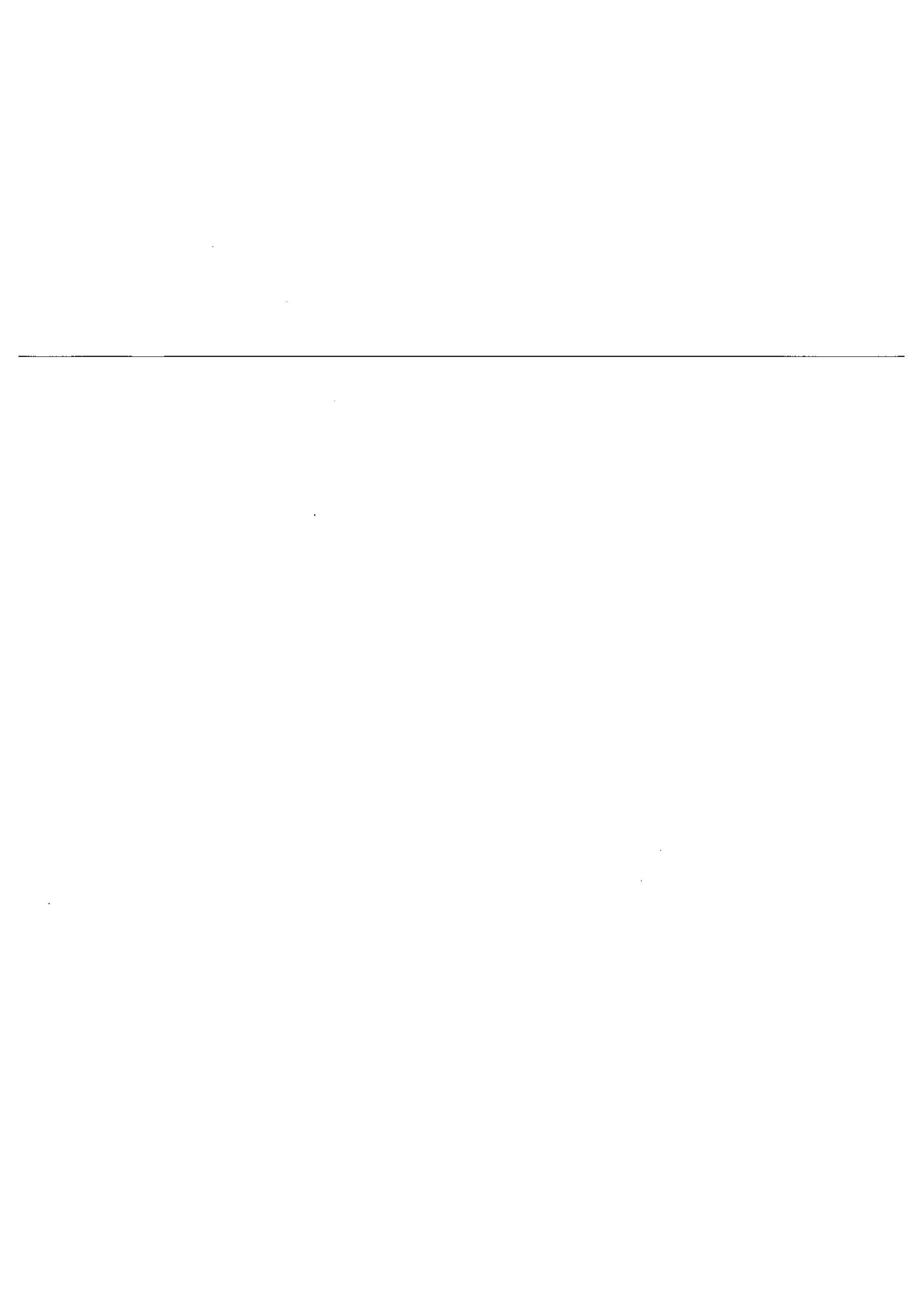
وفتح أبي عينيه على سعتهما واقترب مني يقول : رشيد ••• ألا تتذكر ؟ ألا تذكر شيئا ممـــا قصصته عليك ؟ نظلي أفندي •• امــرأة عارية على صخرة الساحة تولول وتصيح •• جنود ، هياج ، رصاص • لعلك كنت بين السابعة والثامنة من عمرك •• هل نسيت اسم نظلــي أفندي ؟ » •

وألقى محدثي رأسه بين راحتيه ، وسبابته تنقر نقراً عصبياً في ثغرة جبينه ، وراح يخاطب نفسه : أأذكر ؟ كيف لا ؟ انني أعرف شبح نظلي أفندي • لقد كنا صغاراً نهرب حيث يمر • وأذكر فتاة عارية ، ورجال الدرك •• قليلا •• قليلا كهلال الشك !•• كيف لا أذكر ، وأنا أشعر من الأعماق انني عاصرت بطفولتي أسوأ أيام الشؤم والموت • وكلما وضعت يدي على قلبي ، أحس بنطفة من المذلة والجبن راسبة فيه راسية تلازم حياتي كما يلازم جبيني اثر الجرح ، والا فكيف تكون نفسي مريضة ، ولم أوفر شيئا في سبيل تهذيبها وتعليمها وصقلها وعافيتها ؟ أنا مشدود الى مصير لن يعافني ، أنا من أبناء السفربلك ، ومن مواليد أعوام النحس ، أعوام نظلي أفندي ، أعوام الجوع والجراد ، والهواء الاصفر !•• أأذكر ؟ بل كيف أنسى ؟ أواه ، اننا أمة قاست شديداً •

ثم التفت صديقي نحوي فجأة وقال : الجعة باردة ، أليس كذلك ؟ لقد جمدت عروقي ••

وصفق فحضر الغلام على الفور وانحنى قائلا : أمر بيك !•• فلوى البيك شفتين ساخرتين من نفسه وقال وهو ينظر في الارض : هات عرق•

★ ★ ★



المعركة

حوارية ذات فصلين (١)

الفصل الاول

الموضوع : بين يدي ورقة يانصيب ، رقمها الذي ستشير اليه اصبع الحظ أو لا تشير ٤٢٨٤ ، وأنا على بعد ساعات من ميعاد السحب •
المسرح : غرفتي المقفلة ، المسدلة الستائر ، المخنوقة بالدخان ، والكتب مبعثرة والأوراق منثورة •
الأشخاص : أنا ، ونفسي ، وعقلي ، والراديو • ولا أنتظر أحدا في مثل هذه الساعة •

بينما الغروب يسدل سجفه ، جلست أفكر • حاولت أن أكتب وكنت مغلقاً كغرفتي • وفي أجواء تفكيري سديم مضطرب ، لا يقاس به جو الغرفة الداخن • قلت لنفسي : أيستطيع مثلي أن يكتب أو أن يفكر

(١) الحوارية من القصص ، كما أرى ، هي التمثيلية التي لا يمكن اخراجها ، وصلتها بالمسرحية « لغة الحوار » فقط •

اذا أصبح غنياً ؟ يميناً ما كنت أحلم بالثراء ، لولا ما يثير فيّ هذا الرقم المشؤوم ٤٢٨٤ من فضول واغراء ورجاء • وما جدوى أن يكتب الانسان أو أن يفكر ، عندما يصبح غنياً ، تقوم بخدمته شتى وسائل المدنية الحديثة ! بل هل يستطيع غني أن يكتب شيئا له قيمته أو أن يعطي نتاجاً له خطره ؟ هي ساعات اليأس ، حيث ينكر الانسان « قيمة » كل شيء ، ولا يفهم الا « ثمن » كل شيء • هي ساعات اليأس من الصلاح والاصلاح •

قلت لنفسي •• نعم ، لنفسي : ما فائدة كل هذا ؟ وأشرت نحو الكتب ، في دقيقة من دقائق الوهن والخور والخذأ • وقالت لي نفسي مؤكدة : لا فائدة • فيالنا من فقيرين ، أنا ونفسي !•

٤٢٨٤ رقم بطاقتي • فاذا ربحت ؟ يا للغبطة ! وراحت نفسي تزقزق كالعصافير ، في مستهل الربيع • اذا ربحت فسأجن • السعادة لا أتحملها •

وفي غمرة هذا الدخان الراكد ، في جو لا تسبح فيه نسمة الا غريقة مخنوقة ، راحت عيناي تتسقطان خبراً ، أو تتلمسان شبحاً ، أو تغازلان سراباً •

أأجن ؟ لا يا نفس • كل نهاية الا الجنون •

وهنا سمعت صوتاً عميقاً : ماذا تعني ؟

ثم تبدو على المسرح نفسي • ها هي مملسة من ذاتي ، خارجة من وعائها ، راكبة متن الحس • فما أغرب هذا الشكل !

ــ ما أجملَك يانفسُ !

تظهر نفسي بوضوح ، وتمثل فيها جميع عناصر وجودي ، وكياني، فكدت أشتم فيها رائحة شعري أو تحت ابطي •

ـ يا حبيبتي ، يا نفسي ، ما أجملك !

ونفسي شبح أزرق بلون السماء ، في أمسية ربيع . هيفاء ، بشفتين قانيتين معكوستين على زرقة النحر ظلاً خفيفاً شفافاً ، فما أجملها لو رآها سواها بعيني ، ولن يراها .

ـ ها أنا . ماذا تريد مني ؟

ـ هل كنت أدعوك ؟ (أفكر) .

ـ وكيف لا ؟ لقد أخرجتني وأنت تبسط لـي من ابتساماتـك ودعابتك رحباً سهلا .

ـ (أتأملها بشغف) .

ـ ما قصة جنونك ؟ ولماذا تهذي ؟

ـ هل سمعت ؟

ـ وكيف لا أسمع وأنت توجـه نـداءك الى داخلك ، فيكاد لا يسمع أحد سواي ؟

ـ صحيح . فطنت .

ـ لماذا تجن ؟

ـ من السعادة ..

ـ سعادة الربح ؟ بلى ، سمعتك تحلـم ، سمعتك تتمنى . آه ، لقد خرجت اليك ، تحدوني رائحة الأماني . ما أشهى رائحة الأماني !

ـ ما رأيك لو ربحنا ؟..

ـ ثلاثة ملايين فرنك !   (تصفق فرحاً) .

ـ انني أجن . السعادة ثقيلة .

ـ تردد قصة الجنون ! ما بك ؟

ــ نعم • هي قصة جميع من تفاجئهم السعادة • لقد رووا لي أن كنزاً في بئر خرج على وجه أحد القرويين الذين رصد عليهم ، فما لبث أن جن ، فكان الناس يرونه هائماً على وجهه يبكي ويندب حظه ، وينثر على المارة ذهبه وماله •

ــ خرافــة !

ــ وقيل أن كنزاً آخر ، الى جوار البئر ، في القريــة نفسها ، من خرج على وجهه جن • ولقد رأيت القرويين يجعلون طريقهم بعيداً عن البئر المرصودة ، لأنهم لا يريدون أن يثروا ولا أن يجنوا !•

ــ مجانــين !

ــ بل عقلاء يا نفس • فالانسان مهما تطوّر وتهذّب وأعد نفسه لا يمكن أن يكون أهدأ روعاً من القروي الذي طار صوابه ، أو احكم عقلاً من القرويين الهاربين من طريق البئر المسحورة •

ــ هوّن عليك • انك لتثقلني دائمــاً بوساوسك وتطيرك • ان مصادفات النحس قد بثت فيك هذه الطيرة • ولو علمت أن في الحياة مصادفات سعد أيضاً •• فاخرج من قوقعتك •• اخرج !

ــ لقد كنت مصيباً أبداً في حذري •

ــ هه •• جبان • لطالمــا جنيت عليّ ، وأبعدت عني ألف فرصة وفرصة •

(بحرد) :

ــ لا يصح يانفس أن نجازف برفيقنــا العقل في دروب هــذه المغامرات الشعواء التي تدفعين اليها • انها مؤامرة •

ــ يا له من عجوز ثرثار •••

(بزجر) :

ـ لا تكفري • ما قيمة جمالك لولاه ، انـه صون لك وحلية في عنقك • كم مرة أشرفت على النار ، وكم مرة أشفيت على الهلاك !•

ـ انه سبب تعبي وشقائي وحرماني حريتي •

(بحدة) :

ـ أنت متهورة • لولاه لما رأيتك الا راقصة ، أو احدى مغامرات « مونمارتر » بعد نصف الليل •

(نفسي تحمر ، ثم تعود الى زرقتها وصفائها) •

ـ أتهينني وأنا نفسك ؟

(تأخذ قدحاً وتسكب فيه الخمر من ابريق تحت يدها وتشرب)•

ـ لا تفعلي • انها السم • ولطالما قلتِ لي ان فيك أفعى ، اذا شربتِ استفاقت وغدت ضارية •

ـ أزح عني كابوس هـذا الرفيق العجوز • انه يخاف الأفعى • فلتخرج من نومهـا •

(انني أشاهد في جسد نفسي الأزرق الآن رؤية عجيبة • لقد شفّ عن عروق تتفرع في أنحائه كأسياخ محمية ، ملتهبة حمراء • وبين الضلوع أرى القلب كمرجل أحمر يرسل حوله أنابيب حمراء) •

ـ منعتكِ عن الشرب ، شرب الخمر •

ـ كان بامكانك أن تفعل قبل أن أبدأ • لماذا تضع الخمر هنا ؟

ـ لقد غدا وجهك أحمر مخنوقاً • انظري في المرآة • انك مخيفة •

ـ هي ساعات الصفاء •

(تضحك فتقهقه وترتسي في أحضاني جميلة فتانة) •

ـ أنت غريب عندما تتركني لتدافع عن عجوزك الثقيل •
ـ نفسي ••
ـ عزيزي ••
ـ لا تتهوري •
ـ لا تكن بليداً •
ـ كفاكِ شرباً •
ـ افتح الراديو • طابت الموسيقى • ليمت العجوز •

(أنغام راقصة) •

ـ يا للسماء ! اسمع ياعجوز ! ثلاثة ملايين فرنك ، (تشرب) دنيا من السعادة ، والرخاء ، والبذخ ، والمتعة ، والسفر ، والمغامرة ،(تشرب) ثلاثة ملايين فرنك •• (تشرب) •
ـ أأربح ثلاثة ملايين فرنك ؟ (أشرب) •
(تأخذ الأسياخ الحمراء تتضخم شيئا فشيئا في جسدها الأزرق • فتلتهم الحمرة الملتهبة ، الزرقة اللطيفة وتأتي عليها • ويضج القلب كموقد تفجر) •
ـ سنشتري بيتاً ، وسيارة ، وثياباً ، وحدائق ، وسنسافر • وسنغامر • (اشرب ، تشرب)

(أنغام راقصة •• ونفسي الزرقاء تغدو عموداً من نار) •
ـ ماذا أصابك ، نفسي ؟ انك تحرقينني •
ـ ليذوب جليدك ، ويغرق عجوز الصقيع ، في بحر جهنم ! هل تعرف جهنم كبحر ؟
ـ عرفتها •

ـ اذن تعال •••

(تأخذني بيدها ، تنهضني ، تعانقني • تلصق بي ، تدور بي على ايقاع الأنغام المتصاعدة من صندوق الراديو • ثـم تدور بي أيضا • تلهبني بأنفاسها ، بالنار المنبعثة من أسياخها الحمراء • أدور معهـا ، كحطبة التهمها اللهب • أذوب بها ، وأظل أدور • أنغام راقصة دائماً)•

كيف أنت ؟

ـ أين أنـا ؟

ـ معي •

ـ ماذا جـرى ؟

ـ أتسمع ؟ ارقص •

ـ أين أنت ؟

•••

ـ أين أنت ؟

(أدور على نفسي • أفتش عن نفسي • أرى شبحي في المرآة صدفة كجمرة تدور على دولاب سريع •••) •

ـ لماذا ذهبتِ ؟ أين تذهبين ؟

ـ أنـا معك ••• (صوت بعيد عميق) ارقص ، در ، اشرب ، اطـرب ، احمق ، بليـد ، صفيق ، ارقص ••• در ، اشرب (يتوارى الصوت) •

(أنغام راقصة دائماً • اسقط متهالكاً على المقعد • فأرى السرير يتهادى في جو الغرفة ، والسقف يدور على نفسه ، تحت قدمي ،والكتب تتطايـر حولي ، صعوداً هبوطـاً ، حمراء ، سوداء ، بيضاء ، صفراء ، كمجموعة فراشات ، هبت عليها زوبعة) •

الفصل الثاني

أنا • النفس • العقل • الراديو •

لا يبدو على المسرح جديد الا الاضطراب ، والتهويش ، والدخان الكثيف •

أنـا ــ (مطرقاً ، ذاهلا ، ورأسي بين كفي) : تباً لي من أحمق ! ماذا فعلت ؟ وما هذا الداور الذي يصرعني ؟

العقل ــ (يتقدم من احدى الزوايا المعتمة) : انهض أيهـا الطفل الأخرق ، فلقد طالما منعتك أن تكون ألعوبة هذه الفاجرة المغامرة •

أنا ــ (مباغتاً) : هس •• لا تسمعك •

هو ــ أتخشاها ؟ جبان !

أنا ــ ويلي منك وويلي منها ••

هو ــ ويلك من نفسك الأمارة بالسوء ، أمّ لهب ، حمالة الحطب•

أنا ــ وما عساها تفعل ؟ صبية فقيرة ، لا غذاء لها الا الأحلام ، ولا ماء الا السراب •• أفنقسو عليها ؟

هو ــ بئس ما تأكل وما تشرب ، وما تأخذ وما تدع بئس مـا أكنَّت ، وبئس مـا أفصحت ، أحية في قميص من حرير ، أم دودة في جيفة وصلصال ؟

أنا ــ رفقاً • لقد كنت أتلمظ معها طعم السعادة • أواه ! شيئان لا أعرف طعمهما : حليب أمي ودر السعادة •

هو ــ وأي طعم في سعادة غير حسية ؟

أنا ــ رويدك ! أليس التعلل بالسراب ، خيراً من الظمأ ؟

هو ــ الماء على ظهرك لو تعلم ..
أنا ــ بربك .. ما أصنع ؟

هو ــ صن نفسك عن خلاعات الهوى ، وضلالات المنى .
أنا ــ ويح نفسي .

(سكون . ثم يزمجر الشيخ غاضباً ، متوعداً ، واسمع حركة . فأرفع بصري من اطراقة ، وأشاهد الفتاة الزرقاء ، في صراع مع الشيخ في الزاوية) .

هي ــ ماذا تقول ياثرثار ؟
هو ــ اخرسي يا فاجرة ..
أنا ــ ما أجملك !
هو ــ مغفل .
هي ــ أطرد هذا العجوز .
أنا ــ رحماكِ .
هو ــ اترك ذراعها يا جبان .
أنا ــ عزيزتي هدئي روعك .
هي ــ أتتآمران عليّ ؟
أنا ــ ما خننتك .. وحياتك .
هو ــ ساقطان .
أنا ــ حلمك .. عطفك ..
هي ــ أتستعطفه .. هذا الوحش ؟
أنا ــ كلا ... ماذا أقول ؟
هو ــ جبان ...

آنا ــ ويحي •• ما كنت أحب مثل هــذه الاجتماعات ! أفّ !
اخرج ••• أخرجي ••• رحماك لا تذهبي •• أنــا مجنون • فقدت صوابي •

(هو يرغي ويزبد ، وهي تظهر في جسدهــا الأزرق الجميل آسياخ النار وقــد راحت تنتشر حمراء قانية • والقلب يشتعل بين ضلوعهــا كموقد تفجّر) •

أنا ــ لا تذهب •• أرجوك •

هو ــ اطرد هذه الوقحة •

هي ــ (تجابهه) : إخرس •

(تصفعه بكفها المشتعلة صفعة داوية ، فينقلب الى الزاوية بلا حراك كعمود ملح) •

أنا ــ ويحكِ ••• ماذا فعلتِ ؟

هي ــ (وقد بدأ يعود اليها وعيها) : لا تنسَ موعد السحب •

أنا ــ صحيح !•• صحيح !••

هي ــ (تفتح الراديو وتسوّي هندامها) : أف ، ما أزعج هــذه الأمسية ! قلت لك ألف مرة ، لا تجمعني بهذا العجوز الخرف •

آنا ــ نفسي •• لا تكوني شرسة ، تعالي •

(تتعانق ، أنغام موسيقى)

الراديو ــ ألو ••• ألو ••• نخاطبكم من صالة « التروكاديرو » حيث تسمعون نتائج السحب الشهري لليانصيب الوطني •

(اكف عن عناقها ، وألهث بعنف) •

هي ــ اسمع •• اقطع نفَسك ••• اصغ •

أنا ــ رباه ! ثلاثة ملايين فرنك !

الراديو ــ سيداتي ، سادتي ، نخاطبكم من التروكاديرو ،أوراقكم أمامكم ، لقد ظهرت النتائج الأولى ، طفل كالملاك يحمل بين أنامله الغضة ، الرقم ٣٥٨٢ فئة ب ، هذا الرقم يربح الملايين الثلاثة .

هي ــ (تضرب على رأسها) : قطع لسانك ، قطع لسانك .. (تهدد بقبضتها صندوق الراديو) .

أنا ــ يا للخسارة !

الراديو ــ ألو ... ألو ... ربحت المليوني فرنك ، البطاقة حاملة الرقم ٧٠٠ فئة ب .

هي ــ (تقرع صدرها ، وتترع كأساً من الخمر تجرعها مرة واحدة) : اخرس يا غراب ، اخرس يانذير الشؤم !

أنا ــ ضاع الأمل .

هي ــ اسمع .. اقطع أنفاسك .

الراديو ــ ألو ... ألو .. لقد ظهرت النتيجة الثالثة ، سيداتي ، سادتي ، ربحت نصف مليون فرنك ، البطاقة حاملة الرقم ٤٢٨٤ فئة آ.

هي ــ (تضرب رأسها صارخة) : ربحنا .. ربحنا .. ألا تسمع .. أما سمعت ؟ نصف مليون فرنك ، ثروة .. لا بأس .. ثروة ، نصف مليون فرنك ، لماذا جمدت كالحطبة ؟

الراديو ــ ألو ... ألو ... هاكم بقية النتائج ..

أنا ــ (مذعوراً مرتبكاً) : ماذا سمعت ؟ ٤٢٨٤ ؟ ربحنا .. ربحنا ...

(نرقص معاً على ايقاع صفيرها ، ونصرخ : ربحنا .. ربحنا ... نصف مليون) .

أنا ــ رباه ••• ما هــذه السعادة ؟ أأستحق يا سماء كل هــذه النعمة ؟ سأفي بنذري ، سأذبح للفقراء •

هي ــ أحمق •• أي فقراء •• آي نذر ، أثمة في الكون أفقر منك وهل لديك أقدس من نفسك •• لتنذر له ؟

أنا ــ (لا أسمع) : سأفي ••• نعــم ••• سأذبح ••• سأتبرع لتسع جمعيات خيرية ، سأكسو تسعة عشر فقيرا ولدوا يوم ربحت ، تسعة ••• تسعة ••• ما معنى هــذا الرقم ؟ ماذا أقول ؟ أين أذهب ؟ أين حذائي ؟ كيف أقبض ؟ أين نصف المليون ؟ سأذهب •

(أدور دورات مرتبكات في جــو الغرفة المحموم وهــي تركض للحاق بي) •

هي ــ سنشتري سيارة فخمة ، وداراً بحديقة • سنفرش الجدران بالمخمل ، ونغرس الأرض بالرياحين • سنأكل ، سنشرب ، اشرب خذ ، سنسافر ، سنغامر ، اشرب ••• عجوز ••• اشرب أيها المحسن الكريم، (تشرب واشرب) •

هي ــ (متسعة الحدقتين) : مــاذا أرى ؟ أتخونني ؟ سافل ••• لقد كنت تخونني !

(تركلني فأقع على المقعد)

هي ــ من حولي ؟ اخرجوا من هنا ، ارتفعي بي ياأرض ، وقربي خدك ياسماء •• تعالي يانجوم ! سأقتطفك يانجمة المساء قبل أن تغربي وأعلق قنديلك فوق باب بيتي لأحتفل الليلة بزفاف السعادة على الفقر المدقع ، ودخول الثروة على اليأس الفاجع ، (تمزق شفوفها عن نحرها)•

الراديو ــ ألو ••• ألو ••• سيداتي ســادتي •• ريثما نعلــن

النتائج الباقية ، نسمعكم مجموعة من الفالس الهنغاري يعزفها لكم اوركسترا لجنة اليانصيب الوطني •

(أنغام موسيقى عالية) •

هي ـ موسيقى •• موسيقى •• أيضاً موسيقى ••

أنا ـ (ألهث اعياء) : ويحك يانفس ! لماذا ترتجفين هكذا ؟ وماذا كنت تفعلين لو ربحت الثلاثة الملايين ؟

هي ـ موسيقى •• موسيقى ، اخرس ، اخفض صوتك ، وأدر مفتاح الراديو حتى آخره ••

أنا ـ رباه •• أصابها الصرع ، ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ كيف أقبض ؟•

هي ـ (تغدق على نحرها العاري ، الملتهب بأسياخ النار ، ابريق الخمر) : اسبحا ياثدييّ في بركة النشوة والفرح ، فلطالما خنقتكما تحت الصدار ، لتذبلا كزهرتي جلنار !•

أنا ـ (أخبط رأسي بكفي) : ماذا جرى لي ؟

هي ـ أين المركبة النارية التي يجري بها جوادان جامحان نحو السماء السابعة ؟ ألم يأت الحوذي الأسود ؟ لقد أبطأ الكلب ، سأمزق صدره بالسوط •

(تضرب رأسها ، تنفش شعرها ، تدور على محورها كعمود من نار) •

أنا ـ يا للفاجعة •• جُنَّت ••

(ترتمي على الارض جاحظة العينين ، وغدا فمها تحت أذنها اليسرى حيث يسيل زبد أبيض) •

أنا ــ ويلي ، ما هذه المصيبة ؟
(احتضن الجثة اللاهبة واطرحها على السرير واتهالك فوقها باكيا)•
الراديو ــ ألو ••• ألو ••• انتبهوا (الموسيقى صادحة) •
الشيخ ــ (زاحفاً من الزاوية) : تباً لهــا من صريعة جموحهــا ، (يطرق حزيناً) :

الراديو ــ ألــو ••• ألــو ••• سمعتم قطعة مــن قطع الموسيقي الخالد رافيل ••• ألــو ••• سيداتي وسادتي • لقد سمعتم أرقــام بطاقاتكم الرابحة • فادارة اليانصيب الوطني تهنئكم ، وتريد قبل أن تعلنكم النتائج الباقية ، أن تعتذر لكم عن سهو وقع أثناء اعلان الأرقام الاولى •

الشيخ ــ انهض ••• اسمع !

أنا ــ (أنهض متقاعساً) : ماذا بعد ؟ لقد خسرت وأنا رابح ؟ •

الراديو ــ ان البطاقة رابحة نصف المليون تحمل الرقم ٤٢٤٨ لا الرقم ٤٢٨٤ الذي أذعناه خطأ • سيداتي سادتي ، عفوكم ، ان الرقــم رابح نصف المليون هو ، أعود فأكرر ، ٤٢٤٨ •

أنا ــ ماذا أسمع ؟

(الشيخ يضحك كأنه يبكي)

الراديو ــ صياح ••• تصفيق ••• لجب ••• موسيقى •

أنا ــ ماذا سمعت ؟ أأنــا مجنون ؟ أأنــا أطرش ؟ ليست بطاقتنا الرابحــة ؟

هو ــ هذه هي الحقيقة ، مُرّة •• مُرّة •••

أنا ــ ما العمل •• أقبل يديك •••

هو ــ مـا العمل ! أتسألني ؟ انك تتلف نفسك في دوار النشوة الكاذبة • وها هو زورقكما الخفيف يتحطم على جبل الثلج العائم في ابعاد المحيط •

أنا ــ ماذا تقول ؟

هو ــ أحمد الله على أن سعادتكما سراب •

أنا ــ أتشمت ؟

هو ــ لا • ولكن لا أحب السعادة عن سبيل سهلـة • انـي لا أؤمن بهـا •

أنا ــ ونفسي ؟

هو ــ لتهلك هلاكاً •

أنا ــ لا تكن ظالماً حقوداً ! انك لا تستطيع بقاءً بدونها •

هو ــ من يدري ؟

أنا ــ سأوقظها •

هو ــ لمـاذا ؟

أنا ــ سأقول لها انها خسرت • سأقول لها ان البطاقة لم تربح • عسى أن يشفيها هذا من دائها • عسى أن يطيب صرعها بالكي • عسى أن تعود الى صوابها • رحمة بها • لقد خسرنا أمانينا ، أو نخسرها معـاً ؟ أواه ما أثقل السعادة ! مسكينة نفسي •

هو ــ لا فائدة • لقد صعقتها صفعة النجاح ، أو تريـد أن تجهز عليها بضربة الخيبة ؟ هون عليك •• وخفف عنها •

أنا ــ أنت كريم وعظيم •

هو ــ أوثق يديها الى جنبيها فلا تتحرك • وضع على الجبين المحموم هذه القطعة من الجليد •

(اجلس أنا الى يمين السرير ويجلس هو الى اليسار) ٠

هو ــ سأسجنها طويـــلا حتى تبرأ ٠ ان دواء الفوضى قليل مـــن حديد السلاسل ٠ ان أخشى ما أخشاه من الثورات ان تنتحر ، والا فلا خوف منها ولا عليها ٠

أنا ــ لك ما تريد ٠ اغفر لها ٠

هو ــ احجب عنها الخمرة يا ولدي والأماني ، فلم أر مثلهما جناحين يحملان صاحبهما بعيداً عن الأرض ، ولم أجد مثلهما دليلا نحو الهوة ٠

أنا ــ (بدهشة) : أراها تتحرك ٠

هو ــ لقد بدأت تنتعش بانتظام ٠

أنا ــ شكراً لك ٠

هو ــ لا تشكر اليوم وتكفر غداً ، لا تشكر ، فهو الوثاق في يديها والجليد على جبينها ٠

(ينهض متثاقلاً تعباً)

(أضم نفسي الى صدري ، وأضجع الى جانبها على السرير ، وأجهش طويـــلا) ٠

(ثم انني من خلال الدموع ، رأيتني وحيداً ، بين سحب الدخـــان الكثيف ورائحة الخمرة المهدورة على الأرض) ٠

جموح القطيع

— ١ —

كان مسلتقياً على ظهـره يحدق في رقاص الساعة بذهول وتأمـل عميقين ، كأنه على موعد يحصي له الزمن بالثواني • وقد بدا منذ بضع دقائق وكأنه لا يرى حركة الرقاص ، ولا يسمع نقر ثواني الزمن ، ولا يتأمل ، ولا تجول في خاطره فكرة ••

كان حسني بك ساهماً لا حركة تنم عن يقظة وعيه ، جفناه جامدان مصلتان ، وانسان عينه ساكن غائم ، كأنه أحد أبطال خرافات تروي أن أبطالها ينامون مفتوحي العيون وسيوفهـم علـى جنبهم • ولعل عينيه العالقتين بالرقاص ، وكان الشيء الوحيد الذي يتحرك في غرفته عندمـا بدأت تدهمها عتمة الغروب ، كانتا تتلمسان غرضاً في النفس مبهم الحالات ثم حالت دونهما غلالة من النسيان العميق ، فلبثتا تحدقان بقوة الاستمرار •

وعندما نقر باب غرفته ثلاث دقات خفيفات انتفض من سريره مذعوراً وكاد يتوجه نحو مائدة في درجها مسدس أسود ، لو لم يسمع صوت خادمه يكلمه من وراء الباب قائلا : « ان سيدتي تذكرك بموعد الليلة ! »

فذكره هذا الصوت الذليل الحذر بحماقة كبرى ارتكبها وهو ينتفض من ضجعته : « لماذا خفت أن يغتالني مجهول وأنا في عقر داري ؟ » ثم زالت الفكرة من خاطره بلا عناء ، وتذكر الموعد الذي ينتظره ، فأدرك أن عليه أن يغادر الدار بعد أربعين دقيقة على الأكثر . ولعله فطن الآن كيف تمدد على فراشه منذ ساعتين ، وهو يحدق في الساعة المعلقة في الجدار ، وقد أحرجته أفكار غريبة لا عهد له بها من قبل .

كان وجه حسني بك مخنوقاً كأن عليه آثار يد شبحية ثقيلة ، متسع الحدقتين ، نافر الصدغين ، مبللا بعرقه البارد ، كمن به حمى أو صداع مؤلم ، فهرع الى النافذة يزيح ستائرها الكثيفة التي كانت تحجب الشمس وتطلع الى الأفق الذي خضبته حمرة المغيب ، فمسح جبينه بمنديل وتمطى حتى اتسعت رئتاه للهواء ، ولبث ينظر طويلا الى منحدر السماء على الرابية المغبرة .

ثمة سؤال يحرجه ، كان قد طرحه على نفسه منذ عام حين هجر المدينة وضوضاءها ، وانتقل الى ضاحيتها فاستأجر هذا البيت المنعزل في أحضان البساتين هرباً من مجهول يلاحقه فلا يدرك كنهه ولا يميز هويته. ولطالما حاول أن يضع حداً للصيغة النهائية التي يجابه بها السؤال الملح. ومنذ يومين ، بل منذ ساعتين ، أصبح الفرار من الجواب مستحيلا ، فان محكمة عليا تشكلت في ضميره ، أصبحت تدعوه وتلحف وتزعج ، فاما أن يجيب بلا أو بنعم ، فالقضية في حياته أو في موته .

... كانت الشمس قد سحبت آخر أشعتها التي لونت بها الأفق بالحمرة الكئيبة الداكنة ، وتداخلت أوائل الظلام بأواخر النهار الهارب ، فانتصبت أشجار الحور أشباح مردة سوداء على طول الأفق ، وتعالى جرس

نقيق الضفادع في جو كله رهبة وسكون • ثم تراكب الظلام واختلطت الأشباح ، فحط بوم على غصن شجرة قرب الـدار ، وراح يطلق من حنجرته صيحاته الرنانة بين فترات منتظمة تذكر بدقات ساعة الجدار • ثم طلع نجم مشع ، وهبت في جوف الليل المحموم نسمة فاترة ما لبث أن ابتلعها غول الظلام •••

ـ نعم •• أم لا ؟ •• أأذهب أم لا أذهب ؟ •• تباً لك ياحسني من رجل شقي !• لقد حلقت بعيداً بأثقالك وقيودك كالنسر يقتلع شباكه ، وأوفر حظاً منك هذا البوم الذي يعيش في زوايا المقابر وبـين تخاريب الأطلال ، والآن قل لنفسك : نعم •• أم لا ؟

قال هذا ، ورجع عن النافذة ليفتح الباب حيث أعلن الخادم منورائه بصوته الذليل المعتاد أن لسيده بطاقة وصلت الان ، فأخذ البطاقة وقرأ: « الجميع بانتظارك •• الشعب في هياج •• عليك أن تلقي الكلمة التي قررها الحزب •• » •

فغمغم حسني بك وقد استهتر فمه بابتسامة كئيبة : الشعب في هياج ••• الشعب في هياج ••• ومتى لم يكن في هياج هذا الحيوان الخرافي الأحمق المفقوء العينين ؟ وطفق يلبس ثيابه •

الياقة ضيقة ، والحذاء ضيق ، والصدار ضيق ، وكل شيء يضيق على حياتي منذ أضعه على جسمي ! يا الله •• ألهمني نعمة الصبر • أعليّ أن أخرج الى الناس مثقلا بالقيود كلما أرادوا أن أكلمهم عن الحرية ؟

وصرخ حسني بك بالخادم ، فدخل عليه وقد قوس ظهره واصفرت سحنته ، وتخاذلت ركبتاه وهو يتمتم : أمرك سيدي ••• هل ناديتني سيدي ؟

قال حسني بك : هات الحذاء الآخر ، وهات ياقة غير هذه ••• وأعطني غير هذه البزة ••• قل لسيدتك تعطيني ثياباً أعرف كيف ألبسها، وأمشي بها وأتحرك • فخرج الخادم ورجع حاملا ثياب سيده وهو يقول : سيدتي ترى أن ثياب سيدي هذه للسفر ، وليست للأيام الرسمية•

فحملق حسني بك في خادمه العجوز ، وقد سمع كلمة « سفر » فلم يتمالك وأغرب في الضحك ثم قال : قل لسيدتك انني مسافر الى جهنم ••

فانسحب الخادم مشياً الى الوراء وهو يقول : أمرك سيدي ••

جلس حسني بك وراء مكتبه وصمم دون كثير من التفكير أن يضع صيغة الخطاب الذي يجب أن يلقيه هذه الليلة في نادي حزب « التعاون الشعبي » ويذيعه على الناس • ففرك جبينه وطرد من وهمه فكرة « السفر » لمجرد أنه يلبس ثياب السفر • ولكي يقطع الدرب على أفكاره المشوشة المضطربة التي خلقتها من جديد كلمة « سفر » راح يكتب على الورق أمامه العنوان الذي تعود أن يضع تحته صيغة خطبه السياسية :

أيها الشعب النبيل !

ثم انطلق يكتب بيد مرتجفة مضطربة : « ••• في هذه الليلة السعيدة التي تلتف فيها حول رجالك الأحرار ، فتطوقهم بثقتك الغالية وتمنحهم القوة التي يرفعون رايتها ويحملون علم مجدها ، أقف باسم هؤلاء الأحرار الذين أمثلهم ويمثلونك لألقي على رؤوس الأشهاد كلمة حق ونور يسجلها التاريخ ويخلدها صدر الزمن •• وتهتز لها الأجيال ذرية بعد ذرية •• ألا وهي الكلمة التي تصدر منك وعنك ، وهي اليك، وعليك ••• وفيك ! » •

كتب هذا واذا به ينفجر بضحكة مقهقهة ، اتصلت بنوبة سعال حادة، فسحق لفافته في صحن ، وأمسك بالقلم وكان لا يزال يضحك وشطب كلمة « عنك •• وفيك » من الخطاب ، ثم استأنف الكتابة قائلا : لعنة الله على الفقاقيع •

« أيها السادة : نحن نعلم أنكم لستم بحاجة الى كثرة الكلام ، فليس أدل على ثقتكم بنا من اجتماعكم هذا ، وليس أدل على ثقتنا بقضية الوطن الكبرى من عملنا وجهادنا المتواصلين ، فمن أولى ثقته أحرار أمته لا يتراجع ، ومن يقطع عهداً لا يخون العهد •• وحق السماء لن نخون العهد ، فنحن قوم آلينا على أنفسنا أن نموت أحراراً كما عشنا ، فدون أذية الوطن رقابنا ودماؤنا •• ودون كرامتكم أرواحنا وأغلى ما تملك أيدينا وما يمكن أن تملك • »

عندما وصل حسني بك الى هذا الحد ، كان العرق يتصبب من جبينه ، والعياء يهد كتفيه ، فكان يكتب الكلمة الواحدة أربع مرات ويستبدلها بسواها ثماني مرات ، حتى اذا أعياه الجهد صرخ في نفسه : « والآن أيها الدجال ! قل الكلمة •• ما هي الكلمة !•• أنطقها واطلع بها على هذا الشعب النبيل ! •• يا لك من صيرفي سمسار ، رأس مالك الرياء والفقاقيع الجوفاء !•• »

وطرق الباب فاذا بالخادم يرجو سيده الخروج لمقابلة جماعة يطلبونه بالحاح ، وكان حسني بك لا يزال يصيح فأردف باللهجة نفسها : « ويل لك أيها الأبله •• قل للجماعة انني لست هنا ، قل لهم انني لا أريد أن أخرج ، قل لهم انني خرجت منذ ربع ساعة ! قل سافرت •• أترى ياأحمق انني موجود هنا ؟ •• »

ثم جلس وراء مكتبه ثانية وقد عدل عن انجاز خطابه فراح يكتب بسرعة :

« أيها الشعب المغفل !

« أتعلم ماهي الكلمة التي أقولها ؟ هي الكلمة التي لن تسمعها لأنها غير موجودة الا في سجل الرياء الذي كتبته معك منذ ثلاثين عاماً ، أضع فيه ما لا تدرك ، وتدرك منه ما لا أضع .

« كل الليالي التي ألقاك بها أيها المجموع البشري الثقيل هي ليال مشؤومة . فكلما جن جنونك ، هتفت باسمي ، لأنتصب في حشدك كمحكوم عليه بالاعدام ، وكنت أستولي على جنونك بقليل من الرياء وأعود ساخراً منك ومن نفسي ..

« ثلاثون عاماً درجت بها معي من معلم بسيط في قرية صغيرة الى مدينة كبرى وزعامة خطيرة ، ولم أراك يوماً تحب الصدق ، ولم أصدقك في كلمة من الكلمات !.

« أنت خرافة ، وأنا خرافة مثلك ، تزملنا بثوب واحد ، نسجاء من أضاليل السياسة وأوهامها ، وأسلوبها العذب ، وانشائها الداوي الرنان! فكنت تتعزى أن يكون زمام حياتي بيدك ، وكنت أتعزى أن يكون زمام أمرك بيدي ، ولم أكن الا لأخادع نفسي فيك وتخادع نفسك فيّ ولم أكن الا لأستعبدك وتستعبدني ، كأننا على اتفاق منذ عاهدتني وعاهدتك على الدفاع عن هذا الوطن الشقي بك وبي ، أن تبادلني العبودية بالدرهم فأبادلك مثلها بالقنطار .

« أيها الشعب الجاهل ، يا من تشوقك كلمة وتسوقك أخرى ، كحقل من القنب ، في دوار عاصفة ذات أربع رياح ! كنت أود أن أقول لك الحقائق عارية حرة ، مزقت عن جسمها برود البطولة المزخرفة ،

وطيالس الأبهة المتعجرفة ، ولكنك خلقت لتعمى عـن الحقائق • وان لوجهك الخرافي ألف عين لا تبصر الا بواحدة منها وهي المثقوبة من فوق يافوخك !•• ألا اعفُ عن جرائمي التي ارتكبتهـا على كتفيك فقد ارتكبت أنت من الجرائم على كتفيّ ما ناءت به حياتي • فأنا في حل من دينونتك ، أطلق حياتي من خرافاتك ، فها أنـا أحرر حياتك من وهم زعامتي وبطولتي • »

عندما انتهى حسني بك من تسجيل كلماته على هذا الشكل ، قام ثانية نحو النافذة ، فأطفأ النور وأطل على الظلام الكثيف فخيل اليه أن عصفورا أفلت من غرفته ، من صدره ، وقـد دف بجناحيه الخفيفين وتوارى في ايك الحور والصفصاف كنجمة ذات جناح • فارتاحت نفسه وتنفس ملء رئتيه !•• انه حر ••• حر !••

— ٢ —

ولكن الشعب ينتظر حسني بك كما تعود أن ينتظره دائما • انهـا آمال جسيمة تلك التي تتجسد للشعب في شخص حسني بك ، وان رؤيته على شرفة هذا القصر الابيض يطل على الحشد البشري الكبير لجديرة بأن تحقق نصف هـذه الآمال • والكلمة التي سيلقيها تحقق النصف الآخر •

ان مخيلة الشعب قد هضمت حسني بك منذ الزمن القديم فأصبح شطراً لا ينفصل من كل ما يجول في خاطره ويتحرك في رجائه وضميره •

وعبثاً حاول أعضـاء حزب « التعاون الشعبي » تهدئـة الخواطر

والتلويح بالكلام المفهفهف الرنان من على شرفة القصر الابيض ، فالشعب لا يفتأ يصرخ : حسني بك ... حسني بك ...

الجماهير تتقاطر جماعات ومواكب الى ساحة الميدان الكبرى ، حيث تطل عمارة القصر الابيض بشكل تاج ، وكان كلما ظهر على الشرفة خطيب من رجال حزب « التعاون الشعبي » تزحف الجماهير متزاحمة الى الامام موجة واحدة كأن الخطيب قطعة حديد ممغنطة ، فيقول بضع كلمات لا يسمعها الا عشرة من ألف ، والباقون يصمهم الصراخ ، وآخرون يهتفون وراء الهاتفين دون أن يعلموا لماذا يهتفون . ففي مثل هذا الدوار العاصفي الزاخر بعواطف الشعب كان اسم حسني بك معلقاً منذ عشرين عاما كطبل كبير في شجرة تطوح بها الرياح .

على الميدان الكبير ، كانت شمس الصيف تصب نارا ، لا تلبث الارض أن تردها الى الجو لهاثاً خانقاً يختلط برائحة الرجال المطبوخين بعرق أجسام مبشومة بالحماسة والقلق . وكانت ألوف الوجوه النحاسية اللامعة تتجه دائما بعيون مشدوهة نحو غرفة واحدة في القصر الابيض سيطل منها حسني بك كالنور الهادي ...

حسني بك لم يظهر على الشرفة . ولكن رجلا هزيلا أصلع الجمجمة كان يخرج الى الشرفة بين الفينة والفينة ليقول بضع كلمات ترددالجماعات صداها تصفيقا في هذا الجناح ، وهتافا في ذاك ، ويمر وقت فيتلقفها الجمهور فماً عن فم ، ثم ينفجر بهتاف واحد بعد خمس دقائق بعدما يتلمظ بها وعيه السكران .

لقد تواكبت الجماهير وازدحمت قطعانها وتداخلت مواكبها فشكلت مساحة واحدة من الرؤوس البشرية المخنوقة الاكتاف ، تترنح ذات

اليمين وذات الشمال كأنها موجة لها نواميسها السرية في المد والجزر ٠ وقـد تخفت الضوضاء آناً لتعود أشد وأقوى ٠ ويخيـل أن لسحق الصدور على الصدور صوتاً يزهق الروح ٠

هي ساعة الغروب وحسني بك لم يصل بعد ! وعندما راحت الشمس تسحب أواخر أشعتها عن الميدان الفسيح وقد ارتفع عليها غمام مستطير من الغبار الخانق الثقيل ، كان الاضطراب قد بلغ حده في هذه الموجة البشرية التي لم تعـد تقوى على حصر غليانها الداخلي ، فاندفقت الى الشوارع المجاورة على جوانب الميدان الاربعة ، وترامت عليها من شتى الجهات جماعات أخرى كانت تضيف نفسهـا الى أطراف تلك الموجة المنداحة المتسعة ، المكتسحة دائما ٠ وبعد قليل استنارت غرفة القصر الابيض وبدت للجماهير أشباح الرجال من أعضاء حزب « التعـاون الشعبي » يروحون ويغـدون في النور وبهم سبب من أسبـاب هذه الجماهير التي تنتظرهم ، بينما سـادت العتمة أرجاء الميدان ، فتشرد الابصار نحو النور وتعلق فيه فلا ترى شبح حسني بك ٠

وكأن اقتراب الليل ضخم في الشعب شعور الخطر شأنه في جميع الغرائز ، سُمع للضوضاء هدير يشبه مقدمات انفلات التيار ٠ لذلك عندما خرج الرجل الهزيل الاصلع الجمجمة من غرفـة القصر الابيض وقد احتواه النور كضفدعة تسبح في ضـوء القمر وراح يحرك يديه صعودا ونزولا ويرفع رأسه رفعة الاباء ويحنيه حنية الاستجداء ، أو يمشي خطوة الى الامام وأخرى الى الوراء ، وتتشنج حركات شدقيه وتتضاعف اختلاجات يديه وقدميه ، لم يكن أحد يشعر بأنه يخطب ولم يكن أحد يميز بين كلامه وانفعالات جسمه الخافق تحت الضوء ٠ فقد

خنقت الضوضاء صوت الخطيب وظلت الموجة البشرية آخذة بالتصاعد حتى جرفت غرفة القصر الابيض وجرتها الى الخضم المتواثب كقشرة بيض • وانبثقت فجأة مصابيح النور في أطراف الميدان ، ولكن الضوء لم يزد تلك الجماعات الا ظلاما • فقد استطالت الاشباح وارتمى بعضها على بعض • وعاد الغبار يهوم في مجاري الضوء وقد حمل معه هذه المرة جحافل البعوض المتقاتل في دوار لولبي حول المصابيح الغائمة ، وقد حاول الرجل الهزيل الاصلع الجمجمة عبثا ، توجيه صوته نحو هذا الحشد الأصم المتعامي بحركات يديه وشدقيه فكانت الاصوات تتعالى لتخنق صوته داوية دائما : حسني بك ••• حسني بك •••

وفجأة مشى تيار في قلب الموجة وشوهد بضعة أفراد يركضون فما لبثوا أن استثاروا فضول الواقفين المذهولين فراحوا يركضون وراءهم، وسرعان ما تكسرت الدوائر والصفوف ، واتجه الكثيرون نحو الحركة المتسارعة التي ما لبثت أن وقفت فجأة واشرأبت الاعناق نحو أقصى الميدان حيث طلع رجل على الاكتاف وصاح بصوت عنت له الضوضاء واستكان اللجب : أتعرفون أين حسني بك ؟

وما كادت الاسماع والالسنة تتناقل السؤال وتتطارحه وقد خيل للقطيع أن من يطرح مثل هذا السؤال هو زعيم أكبر من حسني بك ، حتى وثب آخر في صف مقابل وصرخ : هذا الرجل الذي يطأ مصلحة الامة ! فتلاه الصارخ الاول وقد ماج حشد الشعب بعضه على بعض ، بصوت أجش مستطيل : حسني بك الرجل الخائن • اقتلوه ••• ثم تعالت أصوات مترددة هنا وهناك ، كأنها آخر الشك أو أول اليقين : ليسقط حسني بك !•• وعندما عادت الشرذمة الى الركض ، مخترقة

الصفوف ، ساد الاختلاط واندفع الراكضون بالواقفين كجماعة النمل أدركتها النار وراحت تفتش عن مخرج • وبعد ريث كان الميدان الكبير قطعة واحدة تنساق في اتجاه واحد كغيمة دكناء تسوقها عاصفة هوجاء•

الى أين ؟ أي مجهول يسيِّر دفة هذا الزحف الأهوج ؟

الى دار حسني بك الخائن !

لماذا ؟ لانه عدو الامة ! لانه وطيء مصلحة الشعب وخان البلاد •

وكان القطيع بلا عنان يسير في ضاحية المدينة بين الاشجار ، دليله صوت يخرج بين الفترة والاخرى : الى بيت الخائن ••• احرقوه ! وكان كلما اقترب من مقر الخائن أيقن كل اليقين بخيانته •

ـ لماذا خان ؟•••

ـ لا أدري •••

ـ اذاً هو خائن !••

ـ ليسقط الخونة !

حسني بك الذي عاش ربع قرن في وعي الشعب النبيل ، مات في بعض ساعة • وفي حالة ارتجاج تقيأ الحيوان الخرافي كل ما هضمه منذ أعوام •

ان الصواعق لا تعد البيوت التي هدمتها ، والتيار يبدأ باغراق الخزّان الذي احتضنه •

كان حسني بك يعلم أكثر من أي رجل آخر أن الجماهير خائنة كالرمال ، ولقد مشى فيها ثلاثين عاما حتى وصل الى الواحة الخضراء التي طالما فتش عنها ضميره المتعب وجلده المضنى •

وعندما عرج نحو العزلة كان يود أن يتجنب المصير ولكنه لم

يتجنبه • وعندما هاجمت الغـارة بيته في الضاحية فلوثته بالسواد ، وحطمت أبوابه ونوافذه ، ورمت أثاثـه ، وكسرت أوانيه ، وأحرقت أوراقه وكتبه، كان حسني بك في القرية البعيدة التي اختارها، كالسنونو تهجر أعشاشها بغريزة تتوقع عواصف الخريف •

وفي اليوم الثالث بعد الغارة الشعبية كانت البلاد تتحدث عن الخيانة الكبرى ــ أي خيانة ! ــ وكان حسني بك في القرية النائية التي نزح اليها يطالع صحف المدينة وقد أجلس طفله على فخذه وراح يقرأ هذا المقطع بصوت عال : « ولعل المهاجمين لم يدركوا حسني بـك الذي هرب • فوجدت جثة خادمه معلقة على شجرة صفصاف وقد كتبوا على قميصه الابيض : حسني الخائن ! هذا جزاء الخيانة ! » •

فقفز الولد من حضن أبيه وهو يضحك ويردد : حسني الخائن ! حسني الخائن ! ويصفق ويرقص ، وراح الوالد يحدج ولده بنظرات ذاهلة كلها ارتياح وطمأنينة وقد سمع الآن ، بكل وعيه الهادىء ، كلمة « خائن » يرددها ذاك الشعب ••• وهذا الطفل •

★ ★ ★

ميلاد البؤس

أسطورة

خلق الله البؤس ، عشية خلق السعادة .

ان له في ذلك حكمة لا تنتقص ، وحجة عقم فيها الجدل ، وعيت في أمرها الحجج .

وكما سلّ حواء ضلعاً من جنب آدم ، كذا سل البؤس ضلعاً من جنب السعادة ...

شيء في الكون يجب أن يكون . وفي البدء ، خلق السعادة :

... عندما أتم الباريء صنع « السعادة » ، وفرغت ريشته من النقطة الاخيرة ، في الخط الاخير ، تراجع الى الوراء ، تعباً مذهولا ، وفي عينيه ولَه ، وثقل ، كأنه ما عرف الضنى ، في كل صوره ولوحاته ، بمثل ما عرفه في هذه اللوحة الرائعة ، وراح يتأمل في لوحته : انها عذراء فاتنة ، تنفس فيها الجمال وشاع ، كما يشيع الصباح في غلالة الشفق المورد .

وقبل أن ينفخ الله من روحه ، في الصورة الصامتة ، كان كمن يعلم أنه ينفخ الكون بهبة هي الجمال بعينه ، والقبح بعينه ، هي الخير كل

الخير ، والشر كل الشر • فلا النور عندما تصبح الأكوان ، ولا الظلام عندما تمسي • بل النور والظـلام معا عندما تنتشر هذه الروح تحت الشـمس •

أما كيف سبقه هذا الانبثاق، فذلك هو المجهول، وذلك هو السديم في فكرة الابداع • ثم نفخ الخالق ، تعالى ، في الصورة الجديدة ، وما أطال التفكير ، وستر وجهه بكفيه ، وأشاح بوجهه •

كان ذلك صباحا •••

في برجه « تعالى » كان عليه أن يستريح ولما يدرك يوم الخليقة الاخير ••• وكان في عزلته الرهيبـة يشعر كأنه ما خلق حتى الساعة خليقة تذكر •

ان الخالق يرزح تحت عبء همومه •

فود لو لم يبدع كوناً ويخلق روحاً •

أولم تكن السعادة غاية الابداع ؟••

فلمَ لا يرتاح تعالى الى غاية الغايات ؟

ولمَ ترتعش أنامله ، ارتعاشة الشفتين ، ترتجان بالكلام ، والقلب يثقل بالانغام ؟

وما هذا السديم العائم الذي لا تـزال تهيم في أحشائه ، فكرة مجهولة ؟

دخلت « السعادة » عليه مفاجئة ، وهل تستأذن السعادة ؟ وتلك هي المرة الاولى التي تضع بها السعادة قدميها ، ذات لون الورد ، على صعيد الكون • فتسربت الى بـرج سيدها ، كما تتسلـل خيوط الشمس • واستوت أمامه ، تشهد بخفر ودلال ، انها أروع ما أبدع •

فأشرق الباريء واستبشر ، وكان وشيكاً أن يقطب ••• ويزجر •

وكانت السعادة ترفل بشفوف من أنعم الاحلام ، وتبتسم عن أبرد براعم الآمال ، تتثنى كغصن سكـر من زقزقة العصافير ، أو كساقية رقدت محمولة على أكف الرياحين •

فمالت على الاله المرحب بها ، الباش لها ، واستوت في أحضانه ، خفيفة رشيقة • ولكن ما اتسع لها من ذراعيه ، لم يكن يتسع من نفسه المضطربة الدائمة القلق •

في عشية هذا الخلق العظيم ، كانت السعـادة تتوجع من الجنب الايسر • فقد مازجت الصفرة البـاهتة تورد الوجنتين ، ونفر عرقان أزرقان في منفسح الصدغين الشفافين ، وكحل ما تحت الجفنين اثمد حزين •

وأما الفم فقد أحاط به قوسا خطين ، كسيفين مصلتين ، فوق كل ابتسامة ، فلا تخرج الا مدماة ، ولا تتطاير الا مهيضة ، ولا ترقص الا صريعة •

وسرعان ما أدرك الباريء سر الوجع •

وتلمس جنب العذراء ، حيث الألم ، فأحست أنامله ضلعاً نابياً •

ولم تكن ارادة المبدع أن تتوجع « السعـادة » • بل هي ارادة الابداع • شيء في الكون يجب أن يكون •

فانتزع الاله الضلع النابي، ولاول مرة تشعر السعادة بالهناء الكبير، والفراغ الكبير معا •

قالت السعادة : ماذا أنت فاعل بضلعي ؟

أجاب الخالق : سأحيله رماداً ، وأذريه في رياح الهاوية !

فصاحت العذراء متأوهة : ما نويت ذلك !•• أتفعل ؟ بل اصنع لي منه شيئا •

قال : شيا كأي شيء ؟

قالت : شيء كعصا أتوكأ عليها ، أو كصولجان أتزين به •

ونفخ الاله في العضو المخلوع من الجنب الموجع ، وقد أدرك الآن نهاية خلقه ، فاذا به يتم حلقة الختام •

وجه دميم ، على جسم صغير نحيل ، عينان غائرتان في جبين عـال عريض ، فم صغير بشفتين رقيقتين مطبقتين ، فكأن المخلوق الجديـد يكظم وجعاً أزلياً •

قال الخالق بعد تردد ، وقد جرت في قلبه الشفقة ، بقدر ما سرت في حواسه قشعريرة الهول : مقدسة هي ارادة الابـداع • لقد انكشف السديم ، وانزاحت حجب المجهول ، وأسفر الانبثاق الكبير • فلنسمه « الذكاء » •

قالت السعادة بدلال أم مرضع : بل لنسمه « البؤس » • وهكذا كان •

وعندما تحرك « البؤس » وألقى على الكائنات نظراته الاولى شعرت « السعادة » أن رونقها قد أمسى بدراً •

وخرجا الى العالم معاً ، وكانا من قبل حظيرة بهائم ، وراحا يهيمان •

ثمة ملتقى واحد ، كان يلتقي عنده هذان المخلوقان المتناقضان مهما طوحت بهما الاسفار وفرقت بينهما الاحوال ، هو تذكرهما وحنينهما :

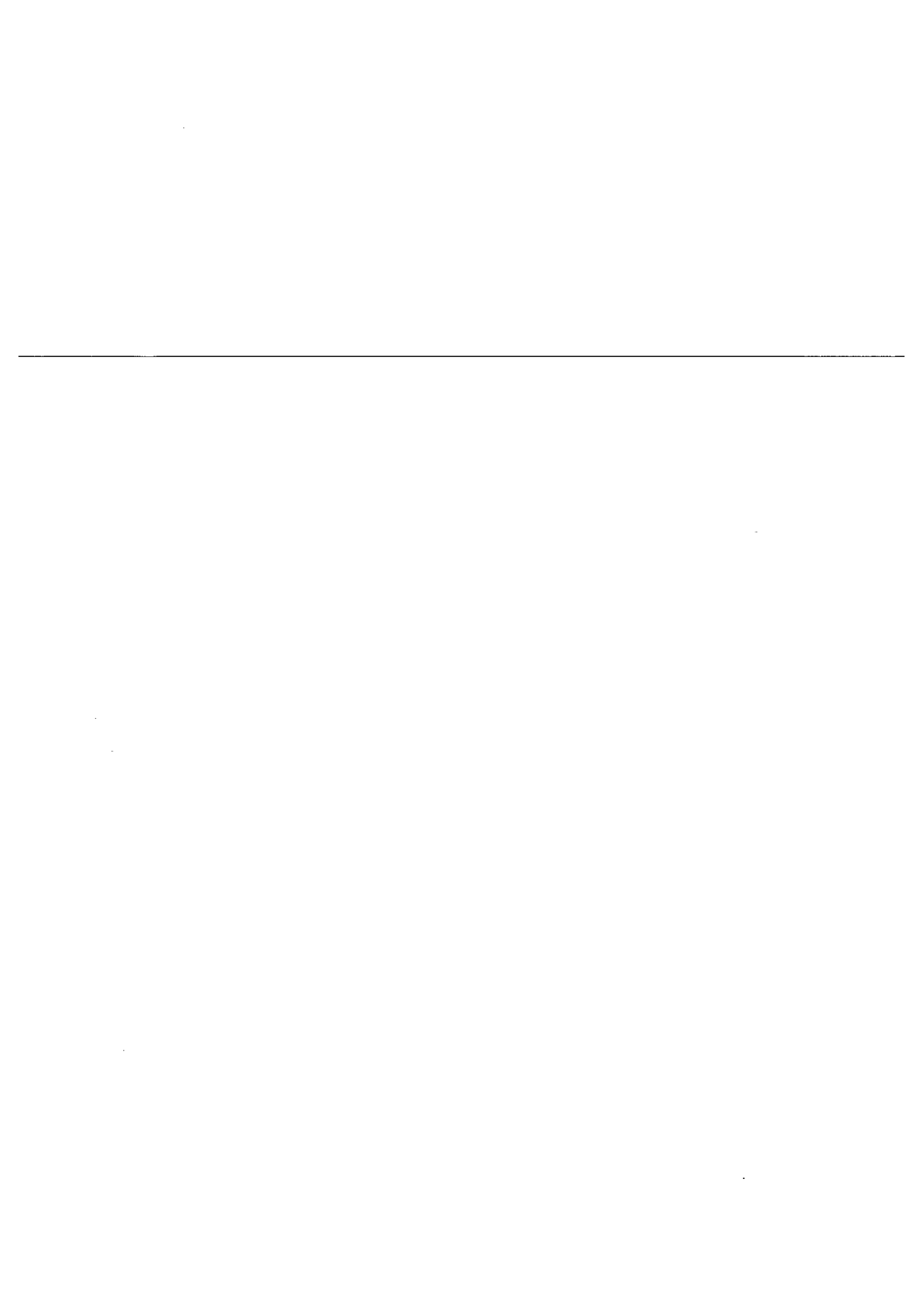
تذكره أنه كان نجماً •••

وحنينه الى الجنب الذي هوى منه ••

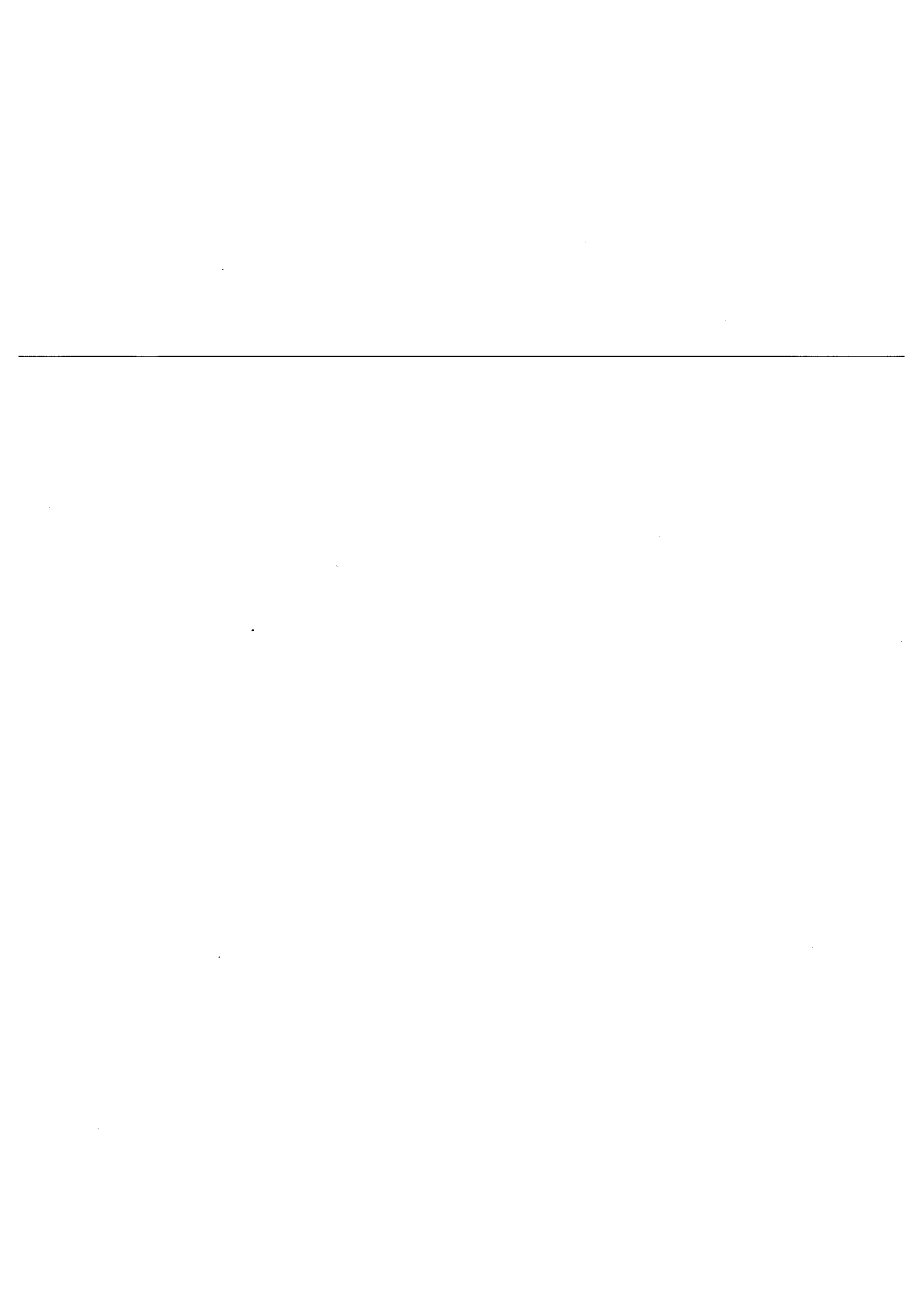
وتذكرها أنها كانت مخلوقة كاملة ...
وحنينها الى العضو المفقود أبدا .

وكثيرا ما كان الاله يطل ليشاهد مصاير مخلوقاته ، فيشاهد البؤس والسعادة يسيران متخاصرين متلاصقين ، هي تتكىء عليه وهو يضع رأسه على جنبها .

★ ★ ★



الفهرس





السعر : ٤ ليرات

دار الأنوار للطباعة - دمشق